جامعة النجاح الوطنية
كلية الفنون الجميلة

مفهوم الحداثة السائلة وأثرها على النضال الفلسطيني

إعداد: بكر يوسف اشتية

إشراف: د. محمد سلامة

الفصل الثاني 2018

قُدّم هذا البحث استكمالاً لمادة بحث مشروع التخرّج

الشكر والإهداء

أقدم الشكر لكل من ساهم في تدعيم هذا البحث، وأخص بالذّكر المحامي محمد ترابي، والمهندس يزن

مرعي، والصديق إبراهيم المصري لمساعدتهم في عملية البحث والاستقصاء وتوفير المصادر

الفهرس

الشكر والإهداء 2
الفصل الأول..... 6
ملخص البحث 7
المقدمة 8
مشكلة البحث 9
أهمية البحث 9
أهداف البحث 10
منهج البحث 10
مصطلحات البحث 11
محددات البحث 13
فروض البحث 14
الفصل الثاني 16
الحداثة السائلة 17
كيف فرضت الحداثة السائلة أخلاقها على المستهلك؟ 17
الأخلاق والمجتمع..... 19
حياة عجولة: كيف فرض النمط الاستهلاكي نفسه؟..... 22
السلطة والثقافة: من الصراع إلى التوافق..... 25
الفصل الثالث 33
المقاومة الفلسطينية...ثورة الإنسان والحجر 34
بداية المقاومة 34
مؤتمر بال 34
أول عمل عسكري..... 34
مظاهر المقاومة..... 35
مؤتمرات ومظاهرات 35
ثورة 1920 36
ثورة 1929 37
المقاومة (1929 -1939) 37
المؤتمر الإسلامي الأول 1931..... 37
عز الدين القسَّام 38
الثورة الفلسطينية الكبرى (1936 -1939) 40
وقف الانتفاضة 41
ثورة الريف (1937-1939)..... 42
المقاومة الفلسطينية (1940-1947)..... 43
تأسيس الهيئة العربية العليا 45
حرب 1948 45
الهدنة الأولى 47

الهدنة الثانية 1948/7/18 48
المقاومة بعد 1948 49
انتفاضة 1987 51
توقف الانتفاضة 53
انتفاضة الأقصى 2000 53
ملاحظات على مسيرة المقاومة 54
أسباب فشل المقاومة الشعبية الفلسطينية تعود إلى العوامل التالية: 56
أولاً: غياب الاستراتيجية 56
ثانياً: ضعف القيادة 57
ثالثاً: فقدان الإرادة السياسية العربية 57
تغير الظروف الدولية 58
المسيرة السلمية 58
خيار المقاومة 59
الفصل الرابع 61
المقاومة الفلسطينية–تخطي الصعاب وخلق واقع جديد 62
العمليات الاستشهادية–القنبلة الذكية 62
عمليات المقاومة والنقلة النوعية 66
اختراق أماكن حساسة 66
تطوير نوعي لسلاح المقاومة 66
اقتحام المستوطنات 66
تقلص الخسائر الفلسطينية 67
الميركافا–التطور الأبرز 67
تأثير المقاومة في الداخل الفلسطيني 68
السلطة الفلسطينية 69
القوى الفلسطينية 71
الشعب الفلسطيني 72
معوقات تطور الانتفاضة إلى مقاومة شعبية 73
العمليات الاستشهادية–الجدل المستمر 75
النضال الفلسطيني في طور جديد 78
دلالات 80
مؤشرات المستقبل 82
الفصل الخامس 84
النتائج 85
التوصيات 85
فهرس المراجع 86

الفصل الأول

ملخص البحث

عرض هذا البحث فكرة الحداثة السائلة للمُفكر زيجمونت باومان، وأثرها على المستهلك وكيف لها أن تحوّل الناس وتغييرهم وتغير معاني المفاهيم باختلاف الحالة الاقتصادية السائدة، كيف أن الشعب الفلسطيني تأثر بشكل واضح حيث تحوّرت معاني المقاومة من الكفاح المسّلح وعدم الاستسلام والتسليم، إلى سلم وسلام وتقبّل واتخاذ فكرة حل الدولتين، وهذا ما تطرق اليه البحث بكل جوانبه.

المقدمة

منذ أن بدأ الاستيطان الإسرائيلي أواخر القرن الماضي في فلسطين والشعب الفلسطيني يستشعر الخطر الداهم، كما استشعره العرب في مصر وبلاد الشام؛ فقد جاءه غرباء هذه المرة، ليسوا سائحين عابرين ولا زوّارًا ما إن يظهروا حتى يغيبوا، ولا هم جيش احتلال يقيم الحاميات، ويصدر الأوامر، بل أشتاتُ مهاجرين، عندهم مشروع سياسي كبير لا يقوم إلا باحتلال الأرض وطرد الشعب.

ومع الزمن أصبحت الأساطير تُحاك حول اسرائيل منذ قيامها عام 1948 حتى يومنا هذا، وتعرض نفسها أمام العالم بأنها ظاهرة خارقة تحقق المعجزات، فطوال الخمسينيات حتى منتصف الستينيات من القرن الماضي كانت موطن "المعجزة الزراعية" التي حوّلت الصحراء إلى جنة خضراء، وبعد حرب عام 1967 أصبحت "معجزة حربية": البلد الصغير الذي استطاع جيشه أن يهزم ثلاث دول كبيرة في ستة أيّام، ومنذ نهاية القرن الماضي أصبحت "معجزة اقتصادية": الاقتصاد الصغير الذي أصبح مركزاً عالمياً لصناعة التقنية العالية أو وادي السيليكون الإسرائيلي بعد وادي السيليكون الأمريكي في كاليفورنيا. (قسوم، 2015)

مشكلة البحث

يتناول هذا البحث فكرة الحداثة السائلة وآثارها على مسيرة النضال الفلسطيني خلال المائة عام الماضية، ويعرض كيف تأثر مفهوم النضال والمقاومة لدى الشعب الفلسطيني، وتحوّره وتغيير معانيه من زمن إلى آخر.

تزامنت المقاومة الفلسطينية مع بدايات الهجرة اليهودية إلى فلسطين في نهايات القرن التاسع عشر، وتصاعدت المقاومة مع تزايد الهجرة، ثم تحولت إلى عمل سياسي وعسكري وثورات ومظاهرات مع فرض الانتداب البريطاني، وتواصلت المقاومة الشاملة بعد قيام دولة إسرائيل، ولم تتوقف بعد. (العاطي، 2004)

أهمية البحث

يكتسب هذا البحث أهميته من خلال قدرته على الربط بين مفهوم الحداثة السائلة من ناحية بشكل خاص، والسيولة بشكل عام، وبين المقاومة الفلسطينية من ناحية أُخرى، وكيف تتغير أشكال المقاومة تباعاً للوضع الاقتصادي العام للكيان الصهيوني، والوضع الاقتصادي في البلاد العربية.

أهداف البحث

- توضيح مفهوم الحداثة السائلة
- إيجاد العلاقة بين الحداثة السائلة والنضال الفلسطيني عبر الزمن
- توضيح أثر الأنظمة المختلفة على بعضها البعض

منهج البحث

وصفي، تحليلي مقارن.

مصطلحات البحث

- **الحداثة،** (Modernity)وهي الشيء الجديد، والذي يعطي صورة معاكسة عن الشيء القديم، وتعرف أيضاً بأنها: الانتقال من حالة قديمة إلى حالة جديدة، تشمل وجود تغيير ما، أما عن دور الحداثة في التاريخ، فيعد الفيلسوف هيغل أول شخص اهتم بمفهوم الحداثة، وربطها مع التطوّرات الفكرية التي ظهرت في أوروبا، والتي اتّسمت بظهور تيارات أدبيّة وفنية لم تكن معروفة سابقاً. (مفاهيم عامة، 2016)

- أما عن **الحداثة السائلة (Liquid Modernity)**، فهو مصطلح أطلقه المفكر وعالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومان، في كتابِ الذي يحمل نفس العنوان، ويقّسم باومان الحداثة إلى طورين متمايزين: الطور الأول، وهو ما يسمّيه باسم (الحداثة الصلبة) وهي تلك التي تم تدشينها في عصر التنوير في أوروبا القرن الثامن عشر، وتمخضت عنها مفاهيم كبرى مثل (الدولة الحديثة–المجتمع–الثقافة).أما الطور الثاني، فهو ما يسمّيه باسم (الحداثة السائلة)، وهي التي برزت على السطح بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في أربعينيات القرن العشرين، ويسمّي الكثير من الباحثين تلك المرحلة باسم (ما بعد الحداثة). أما باومان فقد أعتاد أن يصفها بالحداثة السائلة، بسبب اعتقاده بأن صلابة المرحلة السابقة قد ذابت وتفككت بفعل الكثير من العوامل

والعناصر المتداخلة، مما نشأ عنه حدوث (تداخل في الحدود وتراخت السمات وازدادت ضبابية وتشابهت) (هدور، 2017).

- **المقاومة الفلسطينية** هو مصطلح يشير إلى الحراك والسياسات والدعوات والعمليات التي تدعو أو تدعم مقاومة الاحتلال والاضطهاد والاستعمار الصهيوني للفلسطينيين والأرض الفلسطينية وتسعى لرفعه، يستخدم المصطلح لوصف تحركات فلسطينية متنوعة تتروح بين المقاومة المدنية، الشعبية والمسلحة. (المقاومة الفلسطينية، 2012)

"بدأت المقاومة الفلسطينية المسلحة بعد عام واحد فقط من المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا"

- **الانتفاضة الفلسطينية الأولى** أو **انتفاضة الحجارة**، سمّيت بهذا الاسم لأن الحجارة كانت أداة الهجوم والدفاع التي استخدمها المقاومون ضد عناصر الجيش الإسرائيلي، كما عُرف الصغار من رماة الحجارة بأطفال الحجارة. (الانتفاضة الأولى، 2012)
- **مؤتمر بال** وكان انعقاد مؤتمر بال عام 1897 مقدمة لتأجيج المشاعر العربية، إذ وضع هذا المؤتمر الصهيوني القضية الفلسطينية في بؤرة القلق العربي. (العاطي، 2004)
- **السيولة**، هي المرونة التي تقف في وجه الصلابة في كل الميادين
- وفي تعريفه لمصطلح السيولة الذي يعنيه، يشرح لنا "باومان" في أول هذه الكتب "الحداثة السائلة" مفهوم السيولة بأنه انفصال القدرة (ما نستطيع فعله) عن السياسة (ما يتوجب علينا القيام به)،

أو بكلمات أبسط، فإننا إذا اعتبرنا مرحلة الحداثة الصلبة هي مرحلة الإنتاج والتطور الذي تتحكم به الدولة وتكبح جماح الأفراد لصالح المجموع، فإن مرحلة السيولة هي مرحلة تخلي الدولة عن هذا الدور وفتح السوق أمام الرأسمال الحر والاستهلاك والتحديث المستمر الذي لا غاية ولا هدف له إلا المزيد من الاستهلاك والإشباع الفوري والمؤقت للرغبات. (عودة، 2016)

- **زيجمونت باومان،** عالم اجتماع بولندي (ولد يوم 19 من نوفمبر عام 1925). منذ العام 1971م استقر في إنجلترا بعد ما تم طرده من بولندا من قبل حملة معاداة الساميّة بترتيب من الحكومة الشيوعية التي كان يؤديها مسبقاً. بروفسور علم الاجتماع في جامعة ليدز (ومنذ عام 1990م أستاذ متقاعد) عُرف باومان بسبب تحليلاته للعلاقة بين الحداثة والهولوكوست، وأيضاً ما يتعلق بالمذهبية المادية (الاستهلاكية) لما بعد الحداثة.

محددات البحث

الشعب الفلسطيني باختلاف أطيافه وأحزابه عبر القرن الماضي

فروض البحث

- أن هنالك علاقة مهمة بين الحداثة السائلة ومظاهر التطور، وبين طبيعة معنى المقاومة الفلسطينية عبر الزمن
- التطور التكنولوجي والاقتصادي لعب دوراً عظيماً في تحوّر مفاهيم المقاومة وساهم في تغيير طرق وأساليب المقاومة من فترة لأخرى
- قوة الكيان الصهيوني، نابعة من وهم السيطرة التلاعب في سيولة المعاني و لعب دور الضحية المدافعة، مع تنافي ذلك مع الواقع

الفصل الثاني

الحداثة السائلة

كيف فرضت الحداثة السائلة أخلاقها على المستهلك؟

ولد زيجمونت باومان في بولندا عام 1925م، ودرس علم الاجتماع في مرحلة دراسته الجامعية، وعمل بعد تخرجه أستاذاً جامعياً في هذا التخصص، وفي عام 1971م خرج مطروداً من بلده، بعد أن عارض النظام الشيوعي القائم بها، واستقر في إنجلترا، حيث عمل أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة ليدز.

وقد عُرف عن باومان اهتمامه وتخصصه في دراسات الحداثة والظواهر والتجليات المرتبطة بها في العالم المعاصر عموماً، وفي المجتمعات الغربية على وجه الخصوص.

يقّسم باومان الحداثة إلى طورين متمايزين: الطور الأول، وهو ما يسمّيه باسم (الحداثة الصلبة) وهي تلك التي تم تدشينها في عصر التنوير في أوروبا القرن الثامن عشر، وتمخضت عنها مفاهيم كبرى مثل (الدولة الحديثة–المجتمع–الثقافة).

أما الطور الثاني، فهو ما يسمّيه باسم (الحداثة السائلة)، وهي التي برزت على السطح بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في أربعينيات القرن العشرين، ويسمّي الكثير من الباحثين تلك المرحلة باسم (ما بعد الحداثة). أما باومان فقد أعتاد أن يصفها بالحداثة السائلة، بسبب اعتقاده بأن صلابة المرحلة السابقة قد ذابت وتفككت بفعل الكثير من العوامل والعناصر المتداخلة، مما نشأ عنه حدوث (تداخل في الحدود وتراخت السمات وازدادت ضبابية وتشابهت).

وقد أولى باومان في أبحاثه المتعددة اهتماماً كبيراً بتوصيف سمات عصر الحداثة السائلة، فكانت من أهم الكتب التي نشرها والتي تعلقت بذلك الموضوع (الحداثة السائلة، الحب السائل، الأخلاق السائلة).

في كتابه (الأخلاق السائلة) الذي نشره مشروع "كلمة" في أبو ظبي عام 2016م، يتطرق باومان إلى جانب معيّن من الجوانب الأخلاقية في عصرنا الحالي، وكيف تغيرت القيم والمعايير الأخلاقية المتعارف عليها من قبل، تحت وطئة أسلوب الحياة المتبع حالياً.

في مقدمة الكتاب، يطرح باومان سؤال مفتاحياً حول المنهج الذي سيتبعه في دراسته تلك. فهو يؤكد أنه لن يلجأ في الكثير من الأحيان إلى المفاهيم الجديدة المتعارف عليها في الأوساط البحثية والأكاديمية، وأنه سيستبدل بعضاً منها بمفاهيم ومصطلحات أخرى قد تساعده في توصيل أطروحته إلى القارئ بشكل أكثر انضباطاً ودقة، ويظهر ذلك بشكل واضح في قوله (إن عادتنا القديمة والمصرة على البقاء في تنظيم توازن القوى بالاستعانة بأدوات مفاهيمية مثل المركز والأطراف، والسلم الهرمي، والأولوية والثانوية، هي أقرب إلى أن تكون معيقة من أن تكون معينة لنا، أن تكون معمية من أن تكون ضوءاً يقودنا).

وفي الحقيقة، إن القارئ المتعمق لفكر باومان من خلال أبحاثه وكتاباته، لن يندهش من ذلك التصريح، بل وسيجده متسقاً ومتوافقاً مع الرؤية الكلية لباومان، فأحد أهم العوائق التي تضعها الحداثة أمام دارسي ظواهرها، أنها تُعطي لهم بعض الأدوات البحثية والمفاهيمية الحداثية لدراستها، وهو ما يعني بالتبعية

عدم القدرة على الإلمام بكامل الظاهرة ولا على الغوص في أعماقها لتفكيكها وتفنيد عوامل ظهورها وتأثيراتها.

ولهذا فإن باومان يلفت نظر القارئ إلى عدد من المصطلحات التي سيستخدمها خلال البحث، والتي قد تكون جديدة بشكل كلي بالنسبة للقارئ الذي لم يعتد التعامل مع أفكار ورؤى باومان من قبل.

من أهم تلك المصطلحات (التكافؤ، الشبكة، الاتصال والانفصال)، ولا يقدم باومان تعريفاً مفصلاً لكل مصطلح منهم في المقدمة، بل أنه يترك ايضاح كل مصطلح عند تناوله بشكل عفوي خلال البحث.

الأخلاق والمجتمع

يؤكد باومان أن طبيعة المجتمع من حيث كونه شكلاً من أشكال التجمع البشري، قد أدت إلى بروز وسيطرة إرادة جمعية معيّنة هيمنت وطغت على الإرادات الفردية.

فإذا ما افترضنا وجود علاقة ثنائية قائمة ما بين فردين لا ثالث لهما، فمن المؤكد أنه سوف يكون هناك بروز للجوانب الفردية في شخصية كل منهما، وهو الأمر الذي سيتبدل تماماً بمجرد دخول فرد ثالث في العلاقة، لأنه وقتها سوف تكون هناك أغلبية وأقلية، وسوف تهيمن الأغلبية وتحد من تأثير وقوة الفردية، (وبهذا الشكل فإن الأغلبية يقللون من قيمة التفرد، والقرب المميّز، والأولويات التي لا تنافس، والمسؤوليات غير المشروطة، كل تلك اللبنات التي تشكّل أساس العلاقات الأخلاقية).

ويربط باومان بين جميع أساليب وأشكال العمران والتحضّر البشري من جهة ومفهوم القسر وتحدي النزعة الفردية المتأصلة في الإنسان من جهة أخرى، فبحسب ما يقول (إن الحضارة بلا قسر غير متصورة).

ويرى الكاتب أن تلك القاعدة قد أصابها الكثير من التبديل والتغيير في عصر ما بعد الحداثة الذي نعيش فيه الآن، (فقد حلّت الإثارة محل القسر، والإغراء محل الفرض العنيف للأنماط السلوكية، والعلاقات العامة والإعلان محل المراقبة البوليسية للسلوك، وإثارة احتياجات ورغبات جديدة محل الضبط المعياري بصفته تلك).

إذن، يرى باومان أن الأسس والدوافع التي تعمل على شرعنة وجود المجتمع في عصر الحداثة السائلة، تختلف بشكل كامل مع فرضية الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز التي ترى حتمية وجود المجتمع حتى لا تحدث حرب (من الكل ضد الكل)، وإن كانت تلك الدوافع الجديدة تتفق في المضامين والغايات والنهايات مع الدوافع التي أوردتها النظرية الهوبزوية.

ومن النقاط المهمة التي ينتبه لها المؤلف، أثناء تمييزه ما بين ملامح كل من المنظومة الأخلاقية في عصر الحداثة الصلبة ومثيلتها في عصر الحداثة السائلة، هي نقطة (الشعور بالمسؤولية)، فبينما كانت النظم البيروقراطية السلطوية تعمل على إحداث (إزاحة مشاعر) فيما يخص الشعور بالمسؤولية، ليتم التركيز على رأس النظام أو رأس الدولة، وليشعر الفرد بالراحة لكون المسؤولية ليست ملقاة على عاتقه،

فإن أنظمة الحداثة السائلة قد عملت على تثبيت فكرة المسؤولية على كل فرد في المجتمع بشكل فردي خاص، وهذا أدى بالتبعية إلى تقليل وإضعاف أثر (التكاتف الاجتماعي) من جهة، كما قوى من النزعة الأنانية في الفرد من جهة أخرى.

ويستشهد باومان على صحة ما ذهب إليه، عبر الاستناد إلى عدد من التقارير والإحصائيات التي أظهرت أن المتع الرئيسية في قائمة البريطانيين على سبيل المثال، هي متع فردية (استهلاكية) في المقام الأول، وتليها بعد ذلك اهتمامات (جماعية) بخصوص السياسة والحكم. أما في أميركا، فقد ظهرت النزعة الفردية في عدد من الإحصائيات التي قام بها موظفو الموارد البشرية، والتي أثبتت أن القائمين على التوظيف في الشركات يفضّلون تعيين (الأفراد) الذين هم من غير المرتبطين، بحيث يكون من الأسهل طردهم عند الاستغناء عن خدماتهم.

ويتطرق باومان في حديثه بعد ذلك، إلى مسألة سلطة الدولة في وضع (حالة الاستثناء)، وكيف أن تلك السلطة قد سمحت لها بإطلاق يدها في الكثير من الأحيان للقيام بحملات (إبادة جماعية) في أماكن مختلفة من العالم.

ويؤكد باومان على أن أكثر ما تختلف به الإبادة الجماعية عن أكثر الصراعات عنفاً ووحشية، لا يكمن في أعداد الضحايا، وإنما في (طبيعتها الفردية)، ذلك أنه في حالة الإبادة الجماعية تكون (الأهداف المتوقعة للعنف محددة من طرف واحد ومحرومة من حق الرد).

ويرى باومان أن من أهم الدروس التي تمخضت عنها حروب الإبادة الجماعية، ذلك الدرس الذي يعلن عن مبدأ (السيادة للأقوى)، فقد تم العمل على الشرعنة والتأكيد على ذلك المبدأ، وتم ذلك من خلال تجريده من كل الإيحاءات الأخلاقية المتعلقة به، فقد أصبح المهم هو الهيمنة والسيطرة للوصول إلى القمة والبقاء عليها، فصارت تلك الأهداف تمثّل قيماً مهمة في حد ذاتها، واستغنت عن أي قيم أخلاقية أخرى.

حياة عجولة: كيف فرض النمط الاستهلاكي نفسه؟

يقتبس باومان فقرة من أحد مجلات الأزياء الشهيرة، جاء بها (ستة مظاهر أساسية للأشهر الستة المقبلة، من شأنها أن تبقيك مواكباً للموضة).

يرى الكاتب أن ذلك العنوان مواكب بشدة لطبيعة وبنية المجتمع الاستهلاكي في عصر ما بعد الحداثة. ف(الموضة) بمدلولها الذي يُشير إلى التقاليد التي يتبعها الآخرون (المشهورون والناجحون) بمقاييس المجتمع، تجعل منها تقاليد مرجعية فاصلة ما بين النجاح والفشل، إلى الحد الذي يحدو الجميع لمسايرتها والتوافق معها.

كما أن (الحرص على اتباع الموضة)، يُمثل الحاجة إلى تحقيق الاحترام بشكل مستمر ودائم من جانب باقي أفراد المجتمع، أو كما يعرّف باومان (اليقين بكونك ما زلت على الطريق الصحيح)، بما يحمله ذلك من معنى الاندماج مع الآخرين وتجنّب الوحدة والعزلة.

أما تحديد الفترة بـ(ستة أشهر فقط)، فهو يتوافق مع الشكل الاستهلاكي العنيف الذي يعد بالأمان لفترة محدودة فقط، مما يستلزم معه السعي بشكل متواصل ومستمر لتجديد ذلك الإحساس بالأمان.

أما بالنسبة لوجود (ستة خيارات مناسبة للموضة)، فهو تذكير للمستهلك بكونه حراً في عملية الاختيار، وفي نفس الوقت تنبيهاً له بأن عبء ومسؤولية الاختيار تقع بالكامل على عاتقه وحده، ونلاحظ أن الخيار هنا إلزامي ومحدود في نطاق معيّن مفروض مسبقاً، ولا يسع المستهلك أن يختار من خارجه.

وتتوافق الرؤية الكلية لكل ما سبق، مع المرتكز والمبدأ الأساسي للنظام الاستهلاكي، ذلك المبدأ الذي يتلخص في عبارة (إشترِ، استعمل، إرمِ)، حيث تظهر أهمية تحديد صلاحية كل (موضة/منتج) بوقت معيّن. فمن الضروري أن تنتهي صلاحية كل منتج في فترة زمنية محددة، حتى تتاح الفرصة لمنتج آخر ليحل بديلاً له. ولهذا فإن (النسيان) يعتبر واحداً من أهم عناصر اللعبة الاستهلاكية، فكما يقول باومان (الحياة الاستهلاكية هي حياة من التعلّم والنسيان السريعين).

فإذا كان المبدأ الأخلاقي للنشاط الإنتاجي –بحسب ماكس فيبر–هو (تأجيل الإشباع)، فإن المبدأ الأخلاقي للحياة الاستهلاكية –إن تجاوزنا واعتبرنا أن فيها مبادئ أخلاقية–سيكون (وهمية الشعور بالإشباع).

ومن هنا، فإن شعار تلك المرحلة سيكون (أن يكون العميل راضياً)، وفي نفس الوقت أن تتولد (حاجات زائفة) متجددة، بحيث يشعر العميل بالحاجة إلى تلبيتها وإرضائها وإشباعها.

ويتحقق ذلك عن طريق وسيلتين مهمتين، الأولى هي ازدراء الحاجات القديمة / الموضة القديمة، واعتبارها من الماضي المشين، أما الوسيلة الثانية فهي تجنّب وإقصاء هؤلاء الزبائن الذين لا يسعون إلا لأقل القليل من الحاجات.

من الممكن الوصول إلى تلك الأهداف، عبر الدولة أو المجتمع بسُبل مختلفة ومتنوعة، منها (التلقين الجمعي الأيديولوجي/الفكري) وكان ذلك يتم في مرحلة الحداثة الصلبة. أما فيما بعد ذلك، فقد تم الوصول إلى تلك الأهداف عبر عدد من الأنماط السلوكية المعقدة التي تم التدريب عليها، تلك الأنماط التي تدعو (إلى تقديم المصلحة الجماعية فوق المصلحة الفردية، بالإضافة إلى تقديم الآثار البعيدة المدى على الاشباعات الفورية).

السلطة والثقافة: من الصراع إلى التوافق

يناقش باومان التغيّرات الطارئة على بعض المصطلحات والتعريفات الدلالية المرتبطة بها، مثل مصطلح (الثقافة) على سبيل المثال.

فهو يؤكد أن ذلك المصطلح قد نشأ باعتباره (مصطلحاً وصفياً واسماً شاملاً لنظم السلوك البشري)، ويؤكد أن هناك مصطلحاً أسبق في الظهور من مصطلح الثقافة، ألا وهو مصطلح (الإدارة) الذي يعني (التحكّم بسير الأحداث) وهو ما يستلزم بالتبعية ضرورة (تقييد حرية الخاضعين).

وهنا تظهر إشكالية المعارضة والتضاد الجدلي الديالكتيكي ما بين (الثقافة العميقة) من جهة، و(الإدارة الحازمة) من جهة أخرى.

فكل أشكال الثقافة وتجلّياتها مثل (الفنون) على سبيل المثال، تُشكّل عبئاً على كاهل نُظم الإدارة، ذلك أن الروح الإدارية تحارب الصدفة، والتي هي الموطن الطبيعي الذي تنمو فيه الفنون. كما أن تلك الفنون تعمل في التخطيط لصنع بدائل متخيّلة للأوضاع الراهنة القائمة، مما يؤدي إلى حتمية حدوث تنافس مع الحكام والمديرين الذين تكمن سطوتهم في إقرار الأنظمة التقليدية.

وهنا يُبرز باومان تعارض الثقافة مع النمط الاستهلاكي، ذلك أن (الاستخدام أو الاستهلاك السريع، ليس غاية المنتجات الثقافية ولا معيار تقييمها)، ولهذا فإن فيلسوفة سياسية كبيرة مثل حنة أرندت قد أكدت

مراراً على (أن الثقافة تأتي بعد الجمال)، وهي تستخدم لفظ (الجمال) هنا، للإشارة إلى الكثير من القيم والمبادئ الأخلاقية والروحانية، تلك التي لا يمكن أن تُقيّم بمعايير النمط الاستهلاكي المادي.

ويبيّن باومان أن المفهوم الكلاسيكي للثقافة في المرحلة الصلبة للحداثة، كان يتسق ويتكامل مع (الأفق النموذجي لشمولية اجتماعية موجّهة جيداً)، فقد راعى الشموليون أن تكون الثقافة السائدة في مجتمعاتهم متسقة مع نظم الإدارة الشمولية السائدة، وهو ما تم التعبير عنه بعبارة (مجتمع واحد= ثقافة واحدة).

أما في عصر الحداثة السائلة، فقد تراجع الشموليون عن ممارسة أدوارهم التقليدية التي اعتادوا عليها فيما قبل، فنجدهم قد تقمصوا قميص (الوكالة) وواصلوا لعب دور (الوسيط النزيه) الذي يعرض حاجات وسلع السوق الاستهلاكي من دون أن يجبر الزبائن على شرائها بالقوة أو الجبر. من هنا، فإن باومان يؤكد على أن الصراع الأبدي ما بين السلطة والثقافة قد فقد شكله الاعتيادي، كما إن محاولة إخضاع المجتمع لقيم ثقافية محددة أصبحت غير مجدية ولا طائل من وراء السعي لتحقيقها. ولهذا نجد أن الأمور الثقافية قد سُحبت (وطُرحت للبيع أمام المتبضعين الأفراد في أشكال محدثة من مخازن الجيش والبحرية للفائض).

وهذا أدى بطبيعة الحال إلى إخضاع (الإبداع الثقافي) لمعايير السوق الاستهلاكية ومقاييسها، وهو ما يعني أن تلك القيم الإبداعية قد صارت تُقيّم بالقيمة السوقية الاستهلاكية فحسب، (فالعملاء المرتقبون وأعدادهم وحجم المال في حساباتهم البنكية هو الذي يقرر حالياً (بجهل) مصير الإبداعات الفنية، وتَرسم

المبيعات والتقديرات وعائدات شباك التذاكر الخط الفاصل بين المنتجات الناجحة وبين المنتجات الفاشلة). (هدور، 2017)

"أعيش محاطًا بكلّ هؤلاء الذين جعلوني وحيدًا" [1]

ففي كتاب الحداثة السائلة، ذكر الكاتب ما يلي: "ما قرّرت أن أسميه بوضوح (الحداثة السائلة) إنما هو الإيمان المتنامي بأن التغير هو الثبات الوحيد، وأن اللايقين هو اليقين الوحيد؛ إذ كانت الحداثة في المئة عام الماضية تعني محاولة الوصول إلى حالة نهائية من الكمال، أمّا الآن فإن الحداثة تعني عملية تحسين وتقدم لاحد لها، من دون وجود حالة نهائية في الأفق، ومن دون رغبة في وجود مثل هذه الحالة" (باومان، 2000).

"وإذا كانت الحداثة كنزعة فكرية هي أحد أهم تمخضات القرون الأربعة الأخيرة، تسعى إلى وجود قيمة خاصة للإنسان، ففي خضم الجدل حول وعود الحداثة ومكاسبها، ظهر مفهوم العولمة ليضع مفهوم الحداثة أمام اختبار دقيق يهدف إلى التحقق فيما إذا كانت العولمة وسيلة لتعميم الحداثة، أم أنها نزعة أيدلوجية من إفرازات التمركز الغربي الحديث".

[1] عباس بيضون: شاعر لبناني.

ولنا جوازًا أن نفهم السيولة بأنّها "المرونة التي تقف في وجه الصلابة في كل الميادين" نعم قالها المؤلف: السيولة هي الصلابة الوحيدة، واللايقين هو اليقين الوحيد!

السيولة هي نموذج لنمط حياتنا المعاصرة، ومهمة الكاتب في سلسلته توصيف الوضع الإنساني الحديث في مرحلة السيولة. ويصرّح الكاتب أن تلك المهمة ألحت عليه، وتجلّت بالسؤال التالي:

هل يعتبر الوضع الإنساني الحديث في مرحلة السيولة إرهاصًا أم نموذجًا آليًّا أم استشرافًا أم نذيرًا بما هو آتٍ؟ أو هل كان، على النقيض من ذلك، تسوية مؤقتة عابرة يشوبها الخلل والنقصان وعدم الاكتمال، وكأنّها فاصل زمني بين استجابتين بارزتين ومختلفتين تتسمان بالاتساق والكمال والدوام إزاء تحديات الوجود الإنساني المشترك؟ (باومان، 2000).

ويعزي باومان السيولة التي تتسم بها أزمتنا في الأصل إلى "تفكيك النظم"؛ بمعنى فصل السلطة (القدرة على فعل الأشياء) عن السياسة (القدرة على تحديد الأشياء التي ينبغي فعلها) وما يصاحب هذا الفصل من غياب للقوة الفاعلة أو ضعفها، بعبارة أخرى عدم كفاية الأدوات اللازمة للقيام بالمهام؛ ففي ظل السيولة كل شيء ممكن أن يحدث، لكن لا شيء يمكن أن نفعله في ثقة واطمئنان!

لقد تلاشت كل الصور التي رُسمت في البال لأعوام، بل ولعقود، من خلال خضوع العلاقات الإنسانية للتسليع والاستهلاك "يجتمع المستهلكون في فضاءات استهلاكية مادية ملموسة، مثل قاعات الحفلات الموسيقية، وقاعات المعارض، والمنتجعات السياحية، ومواقع الأنشطة الرياضية، والمجمعات التجارية،

والمطاعم، وذلك من دون أن يكون لهم أدنى تفاعل اجتماعي فعلي" (باومان، 2000)، فحتى تلك التجمعات وعلى ما تحمله من صخب في الأمكنة، وتجمهر عدد كبير من الناس في أفقها، إلّا أنها تخلو من أي علاقات إنسانية؛ فلقاءات المصادفة، التي لا تخلو الأماكن المزدحمة منها، تقف في طريق الغاية، من زيادة أماكن، ولابدّ لهذه اللقاءات من أن تكون سطحية وقصيرة، فالجميع يجهل كيفية الحديث إلى الآخرين، ولباومان رأيه الطريف بالمجتمع الاستهلاكي، الذي تسمه ميزة فقدان الاستمرار، فهو الوضع المبدئي لكل ما تبقى على حد تعبيره، ويرى كاتبنا أنه "في غياب الأمن طويل الأمد، يبدو الإشباع الفوري استراتيجية مغرية معقولة، فأي شيء ربما يقع في يد المرء، عليه أن ينعم به على الفور، فمن يعلم ماذا يمكن أن يحدث في المستقبل؟" (باومان، 2000).

إنه عصر القلق، والخوف المتزامن مع كل ثانية يحييها المرء، ولن تتمكن التكنولوجيا، ولا تقدمها من أن يزيدان فرصة الحياة المستقرة؛ بل على العكس تمامًا، سيسلبان من الفرد كل إمكانية بتطوير الذات تطويرًا حقًّا ودائمًا، ودون مثالب.

ويحزنك أن تقف أمام الحقيقة التالية التي يذكرها باومان، ونؤيده عليها لما نراه الآن من تحققها، فهو يقول: "إن سياسة فقدان الاستقرار التي يديرها القائمون على أسواق العمل، تؤيدها سياسات الحياة وتعزز آثارها؛ فسياستا العمل المؤقت والحياة كلتاهما تلتقي في النتيجة نفسها: اضمحلال الروابط الإنسانية والعلاقات الإنسانية، وذبولها وتداعيها، وتفسخها، فالعهود الماضية بأن (لا يفرقنا إلا الموت) صارت

(عقودًا بصيغة مادام الإشباع) وهي عقود مؤقتة وعابرة بطبيعتها وبتصميمها وبتأثيرها البرجماتي، ومن ثم فهي عرضة للفسخ من جانب واحد، عندما يكتشف أحد طرفي العقد فرصة وقيمة في الخروج من العلاقة تفوق محاولات إنقاذها بأي ثمن ومن غير حساب" (باومان، 2000).

السيولة التي تطرح أمامنا الخيارات اللامتناهية تضيق علينا أكثر، فلا سكينة، ولا هدوء روحي، بسبب امتزاج كل شيء وغياب الشيء الواضح والمفهوم والثابت.

ويركز باومان انطلاقًا من ذلك على توجيه الفرد نحو الجماعة، ونحو تقوية مهارات التفاعل مع الآخرين، حتى يعوض ذلك الخذلان الفردي الكبير الذي ينتج عن الإطاحة بالماضي، وتكريس اللحظة الراهنة؛ فالحياة السائلة التي أولى لها الكاتب اهتمامًا كبيرًا، فقدم كتابًا خاصاً بذلك، بيّن فيه أن الحياة السائلة وطيدة الصلة بالحداثة السائلة، لأننا نحياها في مجتمع حديث سائل.

ويرى باومان أن: "العيش بين وفرة متنوعة من القيم والأعراف وأساليب الحياة المتنافسة، من دون ضمان موثوق بأن المرء على الطريق الصحيح، إنما هو عيش محفوف بالمخاطر، ويطلب ثمنًا سيكولوجيًّا باهظًا". (باومان، 2000)

"إنني أكبر، ويكبر العالم معي، وأكذب لو قلت إنني قادرة على أن أفهمه بصورة أفضل مما كنت في العشرين مثلًا، بل إنّ أغرب ما أفكر فيه الآن أني كنت أفهم العالم حينها أفضل! كان عالمًا أقل تعقيدًا وضياعًا مما هو عليه الآن! وكان يمكن للمرء إن أراد أن يتّخذ جانبًا ضد جانب، أو على الأقل هذا ما

أظنه، العالم الآن يتهتك أكثر فأكثر! يصبح عالمًا خليعًا، وينحدر نحو رخص بين عالم يمكن للمرء فيه أن يعرف كثيرًا عن أي حدث حوله، ومع ذلك فإنه قد يجد نفسه حائرًا في نهاية المطاف ومتشظيًّا؛ لأن كل ما يطرح يبدو صحيحًا، لم تعد المعلومة شحيحة، بل فائضة إلى حد يثير البلبلة، عالم غير آمن، وغير مفهوم فيه لمَ يبدأ أمر؟ ولمَ قد يستمر أو ينتهي؟"[2].

وكتب عبد الوهاب المسيري، في سيرته الفكرية (رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمر): "المطلوب هو حداثة جديدة تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط، حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث".

[2] ليلى الجهني، (40. في معنى أن أكبر)، دار الآداب، بيروت، ص 6

الفصل الثالث

المقاومة الفلسطينية...ثورة الإنسان والحجر

بداية المقاومة

تعود بداية المقاومة الفلسطينية للوجود الصهيوني إلى أكثر من مائة عام، ففي عام 1891 قدم عدد كبير من وجهاء القدس مذكرة احتجاج إلى الصدر الأعظم في الأستانة يطالبونه بالتدخل لمنع الهجرة اليهودية وتحريم امتلاك اليهود للأراضي الفلسطينية. وفي العام التالي لاحظ أهالي قرية الخضيرة وملبس "بتاح تكفا" تنامي عدد المستوطنات اليهودية في أراضيهم، فقاموا بهجوم مسلح عليها أسفر عن سقوط قتلى من الطرفين. وفي الفترة نفسها ظهرت كتابات يهودية في الصحف الأوروبية تحذر من ثورة عربية وشيكة بسبب عمليات الهجرة اليهودية التي بدأ العرب يلتفتون إليها.

مؤتمر بال

وكان انعقاد مؤتمر بال عام 1897 مقدمة لتأجيج المشاعر العربية، إذ وضع هذا المؤتمر الصهيوني القضية الفلسطينية في بؤرة القلق العربي.

أول عمل عسكري

لم تقتصر الأطماع الصهيونية على فلسطين وحدها بل امتدت إلى شرق الأردن كذلك، ويعتبر الهجوم الذي شنه الأهالي هناك عام 1898 على مستوطنة أقيمت في منطقة جرش أول عمل عسكري ضد الوجود الصهيوني. وشهد عام 1900 حملة ضخمة لجمع التوقيعات على عرائض تمنع بيع الأراضي للمهاجرين اليهود. ونشطت وسائل الإعلام العربية في هذه التوعية، فكانت لكتابات الشيخ رشيد رضا

(1865–1935) على صفحات جريدة المنار، ونجيب نصار في الكرمل عام 1908 أثر كبير في زيادة وعي الجماهير العربية بما يدور في فلسطين.

مظاهر المقاومة

وتنوعت مظاهر المقاومة في تلك الفترة فأنشئت الجمعيات والأحزاب التي وضعت مقاومة الهجرة اليهودية على رأس برامجها، واختص بعض هذه الجمعيات في المقاومة الاقتصادية عن طريق تشجيع الاقتصاد الفلسطيني وشراء الأراضي المهددة بالانتقال إلى اليهود، في حين اهتم بعضها الآخر بالجوانب السياسية وعقد المؤتمرات الجماهيرية وتنظيم المظاهرات والقيام بهجمات على المستوطنات الصهيونية. من هذه الجمعيات: الجمعية الخيرية الإسلامية، وجمعية الإخاء والعفاف، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي، وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية ... إلخ.

ومن بين الأحزاب التي تأسست متأثرة بالمناخ العام المعادي للتحركات الصهيونية في فلسطين، الحزب الوطني العثماني (1911) الذي أنشأ لجاناً تشرف على منع بيع الأراضي لليهود.

"سبعة مؤتمرات وأربع ثورات شهدتها الأراضي الفلسطينية طوال العشرينيات"

مؤتمرات ومظاهرات

وبعد صدور وعد بلفور عام 1917 والذي تعهدت فيه الحكومة البريطانية بالعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، اتخذت المقاومة أشكالاً أكثر شمولاً وأكثر عنفاً، وكثرت المؤتمرات الشعبية

خاصة بعد عقد المؤتمر الإسلامي الأول عام 1919، إذ انعقد في الفترة 1919 –1929 أكثر من سبعة مؤتمرات تؤكد جميعها على ضرورة الوحدة العربية لدرء المخاطر الصهيونية والسعي لنيل الاستقلال الوطني.

واكتسبت المظاهرات التي اندلعت طابع العنف وتخللتها صدامات مع الجنود البريطانيين الذين اعتبرهم الشعب الفلسطيني مسؤولين عن الوجود الصهيوني والهجرة اليهودية التي لا تتوقف، وكانت أهم تلك المظاهرات في موسم النبي موسى من أعوام: 1920 و1921 و1923 و1924.

ثورة 1920

وقد اندلعت احتجاجاً على وعد بلفور، وبدأت أحداثها في القدس ثم امتدت إلى مختلف المدن الفلسطينية. وعلى الرغم من منع السلطات البريطانية للمظاهرات فإن الفلسطينيين اعتادوا أن يستغلوا المناسبات الدينية وخاصة موسم النبي موسى، ففي شهر أبريل/ نيسان 1920 احتفل الفلسطينيون كعادتهم بهذه المناسبة وألقى عدد من وجهاء الحركة الوطنية خطابات حماسية كان من أهمها خطابات الحاج أمين الحسيني وموسى كاظم الحسيني وعارف العارف، وبعدها سارت جموع حاشدة في مظاهرات صاخبة طافت شوارع القدس وهي رافعة صورة فيصل بن الحسين بصفته ملكاً لسوريا وفلسطين. وحينما وصلت المظاهرة باب يافا في القدس وقع انفجار قوي تبعه قذف الحوانيت اليهودية بالحجارة، واشتبك المتظاهرون مع اليهود ثم مع الإنجليز الذين هرعوا لحمايتهم. وكانت تلك الأحداث بداية الهبة الشعبية التي استمرت

أسبوعاً لم تستطع السلطات البريطانية إخمادها رغم إعلان الأحكام العرفية، وبلغت حصيلة القتلى والجرحى من الجانب الفلسطيني تسعة قتلى و251 جريحاً. وترجع أهمية ثورة 1920 إلى كونها بداية الانتفاضات الشعبية الكبرى على الوجود البريطاني والتغلغل الصهيوني منذ العشرينات من القرن العشرين وحتى الآن.

ثورة 1929

وشهد عام 1929 مظاهرة عنيفة اشتبك فيها المسلمون مع الصهاينة الذين أرادوا اقتحام المسجد الأقصى وإقامة احتفالات دينية عند حائط البراق، وأسفرت تلك المظاهرات عن إنشاء جمعية حراسة المسجد الأقصى التي انتشرت فروعها في معظم المدن الفلسطينية، واشترك المسيحيون مع قادة الحركة الوطنية للدفاع عن الأراضي الفلسطينية، فانتخبت في تلك الفترة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي المسيحي التي قامت بعدة زيارات خارجية للدول العربية وبعض العواصم الأوروبية.

المقاومة (1929 -1939)

المؤتمر الإسلامي الأول 1931

من أهم أحداث تلك الفترة انعقاد المؤتمر الإسلامي الأول عام 1931 وثورة 1936، حيث دعا الحاج أمين الحسيني إلى مؤتمر إسلامي حضره كبار علماء المسلمين في تلك الفترة من أمثال الشيخ رشيد

رضا وعبد العزيز الثعالبي وضياء الدين الطبطبائي والشاعر الفيلسوف محمد إقبال. وأصدر المؤتمر عدة قرارات منها: تأليف دائرة معارف إسلامية، وإنشاء جامعة أطلق عليها جامعة المسجد الأقصى، وتكوين شركة لإنقاذ الأراضي الفلسطينية. وكانت قرارات هذا المؤتمر دون طموحات الجماهير التي خرجت في مظاهرات عفوية كبيرة عامي 1931 و1933 عمت معظم المدن الفلسطينية وواجهتها السلطات البريطانية بالقمع الشديد، وتطورت تلك المظاهرات عام 1935 إلى إضراب شامل دام أكثر من ستة أشهر، حيث أشرفت عليه لجان قومية لتضمن تطبيقه في كل المدن الفلسطينية.

عز الدين القسَّام

في هذه الأثناء تكونت خلايا مسلحة كانت تطلق على نفسها خلايا "الكف الأخضر"، ولم تظهر عملياتها ضد الاحتلال البريطاني والمهاجرين اليهود إلا في عام 1935، حينما انتقل قائد تلك الخلايا الشيخ عز الدين القسام إلى الريف وبالتحديد إلى منطقة جنين ليبدأ عملياته المسلحة من هناك، ولم يمهله القدر ليواصل جهاده، فقد اكتشفت القوات البريطانية مكان اختبائه فحاصرته وطالبته بالاستسلام، لكنه رفض واشتبك مع تلك القوات حتى سقط هو وأتباعه المحاصرون شهداء. وزاد من لهيب المشاعر الفلسطينية رفض المندوب السامي البريطاني مطالب قادة الحركة الوطنية بوقف الهجرة اليهودية وتشكيل حكومة وطنية ومنع انتقال الأراضي لليهود، فاشتعل بذلك فتيل ثورة 1936.

الثورة الفلسطينية الكبرى (1936 -1939)

عم الإضراب الشامل الأراضي الفلسطينية، ونشطت خلايا عز الدين القسام ومعها الجماهير الغاضبة في إثارة الرعب في المعسكرات البريطانية والتجمعات اليهودية. ومما زاد من توتر الأجواء اعتراض الصهيونيين على إقامة مؤسسات للحكم الذاتي الفلسطيني. وفي فبراير/ شباط 1936 تعاقدت الحكومة البريطانية مع أحد المقاولين اليهود لبناء ثلاث مدارس في يافا، فقام بعض العمال العرب بتطويق موقع إحدى هذه المدارس ومنع اليهود من الوصول إليه، فكان ذلك البداية التي فجرت الوضع. ثم توالت سلسلة من الحوادث والاصطدامات في مختلف المدن الفلسطينية، أعلنت الحكومة على إثرها منع التجول في يافا وتل أبيب، ثم عممته بعد ذلك في البلاد كلها.

وفي العشرين من أبريل/ نيسان شكلت في نابلس اللجنة القومية العربية التي قررت إعلان الإضراب العام في البلاد كلها، وفي اليوم التالي شكلت لجنة مماثلة في كل من يافا وحيفا وغزة، وأعلنت جميعها الاستمرار في الإضراب حتى تستجيب الحكومة البريطانية لمطالبها المتمثلة في منع الهجرة اليهودية وإقامة حكومة وطنية ووقف عمليات بيع الأراضي لليهود، وسارعت الأحزاب الفلسطينية على اختلاف توجهاتها السياسية إلى الإعلان عن تأييدها للإضراب. وفي 25 أبريل/ نيسان عقد اجتماع ضم جميع الأحزاب العربية وشكلت لجنة عرفت فيما بعد باللجنة العربية العليا. وشددت السلطات العسكرية من قمعها للثوار فهدمت منازل المشتبه فيهم، وفرضت غرامات جماعية على القرى التي عرفت بأنها تقدم

مساعدات للثوار. وشارك في هذه الثورة ضباط وثوار عرب كان من أشهرهم الضابط السوري فوزي القاوقجي الذي دخل فلسطين بصحبة مجموعة مسلحة.

وبينما كان الثوار منشغلين بتأجيج ثورتهم والشعب الفلسطيني يؤيدهم، كان القادة السياسيون متلهفين للتوصل إلى تسوية سلمية مع الحكومة البريطانية.

وقف الانتفاضة

في أواخر سبتمبر/ أيلول توجه وفد من اللجنة العربية العليا للاجتماع بالملك عبد العزيز آل سعود والملك غازي والأمير عبد الله، ونتيجة لهذه الاجتماعات والاتصالات بالحكومة البريطانية وجه هؤلاء الثلاثة نداء مشتركاً دعوا فيه إلى حل الإضراب ووقف الثورة و"الاعتماد على النيات الطيبة لصديقتنا بريطانيا العظمى التي أعلنت أنها ستحقق العدالة.

وفي اليوم التالي نشرت اللجنة العليا نداءات الملوك والحكام العرب، معلنة أنها حصلت على موافقة اللجان القومية، ودعت الأمة العربية والشعب الفلسطيني للعودة إلى الهدوء ووضع حد للإضراب.

وسرعان ما توقف الإضراب والثورة، وسمح للعصابات بأن تحل نفسها بنفسها، كما سمح للثوار القادمين من الدول العربية باجتياز الحدود تدريجياً والعودة إلى أقطارهم. وهكذا توقفت ثورة 1936 وانتظرت الشعوب العربية ومعهم الفلسطينيون أن تفي بريطانيا بوعودها، وما تزال تلك الشعوب تنتظر حتى الآن.

ثورة الريف (1937–1939)

كانت ثورة 1937 بداية لسلسلة من الثورات العارمة عمت ريف فلسطين، حيث بدأت أحداث تلك الثورات بعد أن أصدرت لجنة بيل الملكية تقريراً متحيزاً حول أسباب العنف الذي حدث إبان ثورة 1936، فجاءت معظم توصيات اللجنة لصالح الحركة الصهيونية، وكان من بين توصياتها تقسيم فلسطين. وما إن عرف الفلسطينيون بذلك حتى قاموا بثورتهم مستفيدين من خبراتهم في ثورة 1936، فقسموا المناطق بين القادة والتشكيلات وأقاموا جهازاً إدارياً وقضائياً لجباية الضرائب وتنظيم التطوع والتموين وفصل الخلافات التي تحدث بين المواطنين. ويمكن القول إن ثورة 1936 ثورة مدن دعمها الريف، في حين أن ثورة 1937 ثورة ريفية آزرها أهل المدن، والسبب في ذلك غياب معظم القيادات الوطنية خلف قضبان سجون الاحتلال البريطاني، واضطرار الحاج أمين الحسيني إلى مغادرة البلاد.

"بعد أن قدمت ثورة 1936 أربعة آلاف قتيل و12 ألف جريح عادت قضية

فلسطين إلى دوامة المفاوضات من جديد"

واتبعت السلطات البريطانية لإخماد هذه الثورة مختلف أساليب القمع التي مارستها من قبل إبان ثورة 1936، فقصفت مناطق الثوار بالطائرات وهدمت بالجرارات منازل المشتبه في تأييدهم للثوار، مما أسفر عن سقوط أربعة آلاف قتيل وقرابة 12 ألف جريح. ولم تكتف السلطات البريطانية بذلك بل عملت على

فرض ضرائب باهظة كنوع من أنواع العقاب الجماعي. وحينما فشلت في إخماد الثورة استدعت قرابة 50 ألف جندي من الاحتياطي العام للجيش البريطاني، ولم تغفل سلاح الفرقة والوقيعة بين الأهالي ونشط في ذلك بعض العملاء التابعين لها، واستطاع الجيش البريطاني في مطلع عام 1938 إلحاق خسائر كبيرة في صفوف الثوار وإخراجهم من المدن الرئيسية ومحاصرتهم في الريف، لكنه لم يستطع إخماد الثورة تماماً.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية بدأت بريطانيا تشعر أن عليها أن تخفف من قمعها الوحشي لتلك الثورة، فأصدرت بياناً يرضي العرب قليلاً ولكنه لا يحقق مطالب الثوار، فأوعزت إلى الحكام العرب بفكرة الطاولة المستديرة في لندن، تمهيداً لإصدار الكتاب الأبيض عام 1939، وانتهت بعد ذلك العمليات المسلحة ودخلت حلقة جديدة من دوامة المفاوضات والبحث بعد ذلك في أروقة الأمم المتحدة التي تشكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولا تزال القضية تراوح مكانها داخل دهاليز المنظمة الدولية حتى يومنا هذا.

المقاومة الفلسطينية (1940-1947)

لم تشهد الأراضي الفلسطينية في الفترة المذكورة أحداثاً كبيرة بنفس سخونة الأحداث في الفترة السابقة، والسبب في ذلك يرجع إلى القبضة الحديدية التي تعاملت بها سلطات الاحتلال البريطاني مع الحركة الوطنية وغياب أغلب قادتها إما بسبب السجن أو اضطرارهم للخروج إلى سوريا ولبنان بعد أن ضاقت

بهم سبل المقاومة من الداخل. وبعد الحرب العالمية الثانية (1945) عاش العرب والشعب الفلسطيني آمالاً جديدة، رسم فيها خيالهم قصوراً للحرية والاستقلال نظير وقوفهم مع بريطانيا، لكن أحداث الأيام التي تلت الحرب أحالت تلك الأماني إلى أوهام، فبدأت بوادر العمل المسلح تظهر في الأراضي الفلسطينية من جديد.

وفي 1945/1/29 أعلنت بريطانيا أنها ستبقي باب الهجرة اليهودية مفتوحاً، مخالفة بذلك وعودها التي قطعتها على نفسها من قبل بتنظيم تلك الهجرة، ولكي تخفف من وقع الصدمة على العرب أعلنت عن تشكيل لجنة بريطانية أميركية، ووافقت اللجنة العربية العليا على التعاون مع اللجنة الأنجلو أمريكية في 1945/4/20، وجاء بيان تلك اللجنة لينص على السماح لمائة ألف مهاجر يهودي جديد بالدخول إلى فلسطين، وحرية انتقال الأراضي لليهود، وبقاء الانتداب البريطاني على فلسطين.

وأدت هذه التوصيات إلى اندلاع المظاهرات في فلسطين وبعض الدول العربية، واستدعى الأمر عقد اجتماع قمة عربي في أنشاص بمصر يومي 28 و1946/5/29 خلص الملوك والرؤساء العرب فيه إلى بيان إنشائي لا تدعمه آليات تنفيذية، وأكدوا على بديهيات لم تكن بحاجة إلى مثل هذا الاجتماع للتأكيد عليها. من ذلك على سبيل المثال "اعتبار القضية الفلسطينية قضية العرب جميعاً" و"فلسطين

عربية ينبغي مساعدتها للحفاظ على عروبتها"، ومناشدة بريطانيا والولايات المتحدة بأن يكونا أكثر نزاهة في التعامل مع القضية الفلسطينية.

تأسيس الهيئة العربية العليا

تشكلت الهيئة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني عام 1946 وأنشأت مكتباً لها في القاهرة ومكاتب أخرى في فلسطين، ووضعت نظما ولوائح داخلية تضبط عملها. وقبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين بـ 33 يوماً، قررت الدول العربية إدخال الجيوش النظامية إلى فلسطين، لكن على المستوى الفلسطيني الداخلي لم تكن هناك بنية تحتية عسكرية مؤهلة لهذه الحرب، فأخذت اللجان القومية تتشكل على عجل وتهتم بتجميع السلاح الذي كانت فلسطين تعاني ندرة شديدة منه.

حرب 1948

نشبت الحرب في 1948/5/15 بسبب قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة في 1947/12/29، حيث دعت جامعة الدول العربية إلى اجتماع في القاهرة تم الإعلان فيه أن الحكومات العربية ترفض هذا القرار وأنها ستتخذ تدابير كفيلة بإحباطه.

كانت الحركة الصهيونية قد تمكنت من بناء قوة عسكرية كبيرة ضمن عدة منظمات عسكرية أهمها الهاغانا، كما تمكنت بدعم من سلطات الانتداب البريطاني من إنشاء صناعة عسكرية. أما على الجانب

الآخر فكان الطرف العربي مكونا من الثوار الفلسطينيين، وجيش الجهاد المقدس، وجيش الإنقاذ، وقوات المتطوعين المصريين. كما تقرر إنشاء جيوش عربية على حدود فلسطين دون دخولها إلى الأراضي الفلسطينية والاكتفاء فقط بدعم الفلسطينيين والمتطوعين.

في تلك الأثناء أعلنت بريطانيا عن رغبتها في الانسحاب من فلسطين بتاريخ أقصاه 1948/5/15، وحدث خلال تلك الفترة مجموعة من المذابح قامت بها جماعات صهيونية مسلحة، فاتخذت الدول العربية قراراً بدخول جيوشها إلى فلسطين، وبدأت حشد القوات على الجبهات الرئيسية في مصر والأردن والعراق وسوريا ولبنان. وكانت السمة البارزة لتلك الحشود هي عدم التنسيق فيما بينها، فقد كان لكل جيش هدف مستقل، كما كانت بداية العمليات أيضا تفتقد إلى التنسيق، مما حرم الجيوش العربية من عامل المفاجأة في تحقيق انتصارات عسكرية. ويضاف إلى هذه الثغرات العسكرية عامل ضعف أساسي يتمثل في تحكم بريطانيا في تسليح الجيوش العربية.

ورغم كل تلك الثغرات فإن الجيوش العربية حينما دخلت فلسطين في 1948/5/15 حققت انتصارات معتبرة، فالقوات المصرية حققت نجاحات ملموسة في القطاع الجنوبي، وتقدم الجيشان الأردني والعراقي قليلاً لكنهما عادا وتوقفا بعد فترة قصيرة من بدء العمليات ولم يتجاوزا المناطق التي حددت لهما، كما

تمكن الجيش السوري وجيش الإنقاذ من السيطرة على معظم الجليل، ولم يكن الجيش اللبناني بعيدا عن عكا.

"أرغمت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية الدول العربية على وقف القتال لمدة أربعة أسابيع وضبط تدفق المتطوعين والسلاح"

الهدنة الأولى

أحدثت تلك العمليات حرجاً للقوات الصهيونية سرعان ما أزيلت آثاره بقرار مجلس الأمن في 1948/5/22 بوقف إطلاق النار مدة 36 ساعة، ورفضت الدول العربية ذلك القرار في حينه، فمارست الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا ضغوطاً مشددة مصحوبة بتهديدات للحكومات العربية. وتقدم الوفد البريطاني في مجلس الأمن بطلب جديد لوقف القتال مدة أربعة أسابيع، وضبط تدفق المتطوعين والسلاح إلى فلسطين إبان تلك الفترة. وفي 1948/6/2 أبلغت الدول العربية مجلس الأمن موافقتها على ذلك القرار، وتوقف القتال بالفعل في 6/11 وعرفت تلك الفترة بالهدنة الأولى.

أفادت القوات الصهيونية من تلك الهدنة إفادة كبيرة فعززت من قدراتها وزادت من تسلحها في شتى المجالات، ساعدتها في ذلك الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، وحاولت تمديد الهدنة شهراً آخر لمزيد من الاستعداد، لكن محاولتها باءت بالفشل إثر حادثة اغتيال الكونت برنادوت الذي لم ترض الدول

العربية ولا إسرائيل عن مقترحاته للتقسيم، فاندلعت الحرب من جديد في 1948/7/7 على الجبهة المصرية أولاً ثم امتدت إلى بقية الجبهات، واستولت القوات الصهيونية على اللد والرملة في 11 و1948/7/12 بعد هزيمة القوات الأردنية بقيادة القائد "البريطاني" غلوب باشا المتهم بالتقصير في تحصينهما، وأدى سقوطهما إلى كشف الجناح الأيمن للجيش المصري. وحصلت القوات الصهيونية بذلك على محور هام للاتصال بالقدس، وعلى قاعدة جوية هامة في اللد، كما ارتفعت الروح المعنوية لجنودها.

الهدنة الثانية 1948/7/18

تقدمت الولايات المتحدة بمشروع هدنة ثانية قبلته الدول العربية في 1948/7/18، غير أن القيادة الصهيونية خرقت شروط الهدنة في 27 – 7/28 وشنت هجوماً منظماً على كل من الفالوجا وعراق المنشية إلا أنهما باءا بالفشل، فوضعت القيادة الصهيونية خطة جديدة بهدف تحقيق اتصال آمن لها بالجنوب، ولتحقيق ذلك نظمت في أكتوبر/ تشرين الأول 1948 سلسلة من العمليات العسكرية ضد الجيش المصري أبرزها عمليات "الضربات العشر" و"عين" و"حيرام" في الجليل، ونجحت بالفعل في فرض حصار جديد على الفالوجا والتقدم ناحية خليج العقبة، وفرضت سيطرتها على الجليل الأعلى، وأجبرت جيش الإنقاذ على الخروج من فلسطين.

وإزاء هذا الموقف العسكري المتدهور أصدر القادة العسكريون العرب أوامرهم للجيوش بوقف إطلاق النار في 1948/10/22، ولم تلتزم القوات الصهيونية بهذا القرار فتابعت تنفيذ عملية حيرام، كما تابعت تنفيذ عملية أخرى حتى عام 1949 في قرية أم الرشراش المصرية على خليج العقبة والتي أصبحت فيما بعد تعرف باسم ميناء إيلات.

انتهت الحرب وبدأ صراع سياسي أسفر عن هدنة مؤقتة في رودس عام 1949.

وكانت النتيجة المروعة لنكبة 1948:

- ضياع مساحات كبيرة من الأراضي الفلسطينية تفوق ما نص عليه قرار التقسيم.
- إقامة الدولة الإسرائيلية فوق أنقاض الدولة الفلسطينية.
- تهجير آلاف الفلسطينيين إلى الدول المجاورة وظهور مأساة اللاجئين واستمرار معاناتهم حتى الآن.
- تغيير خريطة الحكم في المنطقة العربية وقيام عدة ثورات عقب تلك الهزيمة المرة.

المقاومة بعد 1948

دخلت المقاومة الفلسطينية طوراً جديداً بعد حرب 1948، فقد أصبح لزاماً عليها مقاومة دولة ذات مؤسسات أمنية وعسكرية، بعد أن كانت تقاوم عصابات صهيونية مدعومة من قبل الاحتلال البريطاني.

ولم تكد تمر ثماني سنوات حتى شهدت المنطقة عدواناً ثلاثياً اشتركت فيه كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر رداً على تأميمها قناة السويس، وطال القصف الإسرائيلي منطقة غزة التي كانت خاضعة للإدارة المصرية آنذاك، بعدها طالبت مختلف القوى السياسية الفلسطينية بضرورة إعادة المقاومة المسلحة، فأعلن عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964 وحركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" التي أعلنت عن أولى عملياتها عام 1965، لكن سرعان ما دخلت المنطقة في حرب أخرى جديدة لم تقل خسائر العرب فيها عن حرب 1948، فقد أخضعت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية لسيادتها، واحتلت أجزاء من كل من سوريا والأردن ومصر، وزادت إسرائيل من مساحتها نتيجة تلك الحرب الخاطفة بنسبة 200%.

عادت الجماهير العربية تطالب بمحو آثار الهزيمة، ووجدت المقاومة الفلسطينية المناخ العربي العام مهيأ لمساعدتها، فتحسنت علاقة الأردن بمنظمة التحرير وانطلقت من الأراضي الأردنية بعض العمليات العسكرية ضد إسرائيل، وقد خشيت المملكة الأردنية الهاشمية من ردود الأفعال الإسرائيلية إزاء هذا الوضع، فتهيأ المناخ لعمل ما يكون ذريعة لخروج المقاومة الفلسطينية من الأردن، فكانت أحداث سبتمبر/ أيلول الأسود عام 1970 التي استدرج فيها بعض المتحمسين الفلسطينيين فاشتبكوا مع بعض الضباط الأردنيين، واشتعل الموقف بدلاً من تدخل العقلاء للتهدئة، واستعمل الجيش الأردني آليته

العسكرية الثقيلة، فراح ضحية تلك الأحداث الدامية آلاف القتلى والجرحى من كلا الجانبين، وبالطبع كانت الخسارة الأكبر في الجانب الفلسطيني.

وأسفرت أحداث أيلول الأسود عن خروج فصائل المقاومة الفلسطينية عام 1971 من الأردن على مرحلتين لتكون محطتها التالية في بيروت. وبعد عدة عمليات ناجحة شنتها المقاومة على إسرائيل من الأراضي اللبنانية كان الرد الإسرائيلي عنيفاً، فقد اجتاح جيش الدفاع الإسرائيلي بيروت واشتبك مع المقاومة ودارت بينهما حرب شوارع، وفرض الجيش حصارا خانقا على تلك الفصائل اضطرت في نهايته إلى القبول بالشروط الإسرائيلية بعد وساطات عربية ودولية. وكانت تلك الشروط قاسية ومؤثرة على نهج المقاومة لأنها أبعدت المقاومة من الخطوط الأمامية، فحلت الفصائل وانتقلت المنظمة إلى تونس لتمارس من هناك عملاً آخر ساحته موائد المفاوضات بدلا من خنادق الحروب.

انتفاضة 1987

زادت قناعة رجل الشارع الفلسطيني باستحالة التوصل إلى حل للقضية الفلسطينية دون تحرك شعبي داخلي، خاصة في ظل أجواء من انحسار الاهتمام العربي بالقضية الفلسطينية واكتفاء معظم الدول العربية بتسجيل مواقف خطابية إعلامية دون أن يتعدى ذلك إلى تحرك عملي تشعر معه إسرائيل بالضغط عليها، هذا إضافة إلى شعور منظمة التحرير الفلسطينية بالعزلة الدولية منذ أن غادرت بيروت

عام 1982 متوجهة إلى تونس.. كل ذلك مع ازدياد الأعمال الإجرامية للقوات الإسرائيلية من قصف للقرى والمخيمات في الجنوب اللبناني وهدم المنازل والاعتقالات العشوائية والعقاب الجماعي لأهالي الضفة الغربية وقطاع غزة، أدى إلى أن يجد الغضب الجماهيري متنفساً له في صورة انتفاضة شعبية عمت كل المدن الفلسطينية.

استمرت الانتفاضة حوالي ثلاث سنوات، ظهرت خلالها بطولات فردية، لكن في المقابل كانت القوات الإسرائيلية ترد بعنف، وابتكرت سياسة تهشيم العظام لتسبب إعاقة دائمة للشباب الفلسطينيين المشاركين في الانتفاضة. وتحمست الشعوب العربية لما يحدث في الأراضي المحتلة، وتحسن الموقف السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن كانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد والتي تعدى تأثيرها السلبي القضية الفلسطينية ليمتد إلى النظام العربي بأكمله، وهي غزو العراق للكويت وما أعقبه من حشد الولايات المتحدة الأميركية الرأي العام الدولي ضد العراق، وقيام قوات التحالف الدولي بشن غارات قاسية على الجيش العراقي والمدن العراقية أجبرت في نهايتها العراق على الانسحاب من الكويت.

أما تأثير ذلك على الانتفاضة فيظهر في سحب حرب الخليج الثانية البساط من تحت أقدامها، وتغييرها لأولويات الاهتمام العربي والدولي، فلم تعد القضية الفلسطينية تأخذ من الاهتمام ما كانت تحصل عليه قبل الغزو العراقي.

أما التأثير الثاني فكان نابعاً من الموقف السياسي الذي اتخذته بعض الدول الخليجية بالاستغناء عن معظم العاملين الفلسطينيين، رداً على الموقف السياسي الذي اتخذته منظمة التحرير والذي فسرته الدول الخليجية بأنه مؤيد للعراق، وقد حرم ذلك الإبعاد الفلسطينيين في الداخل من رافد اقتصادي هام.

توقف الانتفاضة

بعد انتهاء حرب الخليج دخلت المنطقة العربية في طور جديد رسمته الولايات المتحدة الأميركية فيما أطلق عليه بالنظام العالمي الجديد، فعقد مؤتمر مدريد للسلام، شاركت بعده منظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات سرية مع إسرائيل تمخضت عن التوصل إلى اتفاق أوسلو 1994 وبروز السلطة الوطنية الفلسطينية على مسرح الأحداث.

انتفاضة الأقصى 2000

في سبتمبر/ أيلول 2000 وبعد فشل مفاوضات كامب ديفد الثانية اندلعت انتفاضة الأقصى التي أشعل شرارتها الأولى زيارة زعيم حزب الليكود المتشدد أرييل شارون للمسجد الأقصى، في ظل تزايد دعوات بهدمه وإقامة ما يسمى بهيكل سليمان مكانه.

واستعملت القوات الإسرائيلية مختلف أنواع الأسلحة في إخمادها، فقصفت غزة ورام الله بالطائرات ودمرت بعض مقرات حركة فتح، وطال القصف مكاتب تابعة للرئيس ياسر عرفات نفسه، وسقط من الفلسطينيين مئات الشهداء وآلاف الجرحى.

ولا تزال الانتفاضة مشتعلة، وإن كانت هناك تحركات سياسية تسعى للتوصل إلى حل يوقف حمامات الدم، وربما يحقق بنوداً سرية تم الاتفاق عليها من قبل.

وبتأمل هذا العرض الطويل نستطيع القول إن المقاومة الفلسطينية التي تشهدها أرض فلسطين حالياً جزء من هذه السلسلة الطويلة في هذا التاريخ الممتد، وجزء من سلسلة مقاومة فلسطينية خاصة بهذا الشعب الذي ابتلي بالاحتلال الإسرائيلي لأراضيه قبل أكثر من 50 عاماً. كما نستطيع استخلاص بعض العوامل التي أدت إلى اندلاع الانتفاضات والثورات الشعبية الفلسطينية، والأسباب التي أدت إلى فشلها في تحقيق الأهداف الوطنية التي قامت من أجلها.

ملاحظات على مسيرة المقاومة

تعددت أشكال المقاومة الفلسطينية بتغير الظروف السياسية والعسكرية، فبعضها اكتسب صفة مسلحة سواء على المستوى الشعبي متمثلاً في صورة انتفاضات تندلع شرارتها في مدينة ثم سرعان ما يمتد لهيب الغضب إلى معظم الأراضي الفلسطينية، أو على مستوى العمل العسكري "المنظم" كالذي قامت

به الجيوش العربية عام 1948 وأسفر في نهايته عما اصطلح على تسميته بالنكبة الكبرى، وما نجم عنها من ضياع للأرض وتشرد للشعب.

واتخذ بعضها شكل المقاومة السياسية إما عن طريق عقد المؤتمرات الجماهيرية أو تكوين الأحزاب السياسية وإنشاء الجمعيات أو البعثات الدبلوماسية والظهور في المحافل الدولية للمطالبة بحقوق الشعب الفلسطيني، وبالأخص حقه في تقرير مصيره وعودة لاجئيه إلى ديارهم. كما اتخذ بعضها الآخر أشكالاً اقتصاديةً، كإنشاء بنوك وطنية كالبنك العربي (1934) وشركة التجارة الوطنية، والدعوة إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأميركية سواء في داخل الأراضي المحتلة أو في العالم الإسلامي.

أسباب فشل المقاومة الشعبية الفلسطينية تعود إلى العوامل التالية:

أولاً: غياب الاستراتيجية

الملاحظ على مسيرة المقاومة الفلسطينية عبر هذه السنين الطويلة أنها تندلع كردود أفعال وليست كاستراتيجية منظمة طويلة الأمد، فتختلف قوة المقاومة –سواء أكانت سياسية أو هبات شعبية–بحسب قوة المثير. يلاحظ ذلك على أول تحرك شعبي فلسطيني عام 1898 حينما قام أهالي منطقة جرش بالهجوم على مستوطنة صهيونية أقيمت في منطقتهم، مروراً بالانتفاضات الشعبية التي شهدتها المدن الفلسطينية في العشرينات والثلاثينات احتجاجاً على أفواج الهجرة اليهودية التي تواصلت دون انقطاع تحت سمع وبصر بل وبمساعدة حكومة الانتداب البريطانية، ووصولاً إلى انتفاضة الأقصى عام 2000 التي أشعل فتيلها زيارة الزعيم الصهيوني المتطرف أرييل شارون للمسجد الأقصى، في ظل دعوات متزايدة بهدمه وإقامة ما يسمى بهيكل سليمان على أنقاضه.

وقد نجم عن هذه الحالة عدم استثمار للغضب الجماهيري فيما يعود بالنفع على القضية الفلسطينية، فبعد أيام أو أسابيع تطول أو تقصر من الهبة الشعبية يسقط خلالها عدد من الشهداء، تتوسط قيادات محلية أو عربية لإعادة الهدوء إلى الساحة الفلسطينية، ويستجيب الشعب الذي يريد عودة الأمور إلى طبيعتها بعد توقف مرافق الحياة الأساسية الخدمية والإنتاجية، وهذا ما ظهر بجلاء في الانتفاضات

الشعبية التي قام بها الفلسطينيون في أعوام 1920، 1921، 1923، 1924، 1929 كما سيتضح من العرض بعد قليل.

ثانياً: ضعف القيادة

باستثناء بعض القيادات القليلة التي تعد على أصابع اليد الواحدة، افتقدت المقاومة الفلسطينية في صراعها مع الكيان الصهيوني القيادات التاريخية المؤهلة للأخذ بزمام مقاومة طويلة النفس سواء في الداخل أو في الخارج. وتميز فكر قادة الحركة الوطنية بالضبابية والافتقاد إلى الرؤية الواضحة، فبينما هم يسعون للحصول على حلول سياسية، لا يعملون بالقدر نفسه على تحقيق عناصر قوة تساعدهم في بلوغ أهدافهم السياسية مما جعل تلك الأهداف تتحول إلى أحلام وأمانٍ.

ثالثاً: فقدان الإرادة السياسية العربية

رغم الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري الذي تلقته القضية الفلسطينية فإن ثماره لم تظهر، وكانت لهزيمة الجيوش العربية عام 1948 على سبيل المثال أكبر الأثر في ضياع كل الأراضي الفلسطينية آنذاك باستثناء الضفة والقطاع. ويقاس على المثال العسكري هذا أمثلة أخرى اقتصادية (الدعم المالي لمنظمة التحرير الفلسطينية) وسياسية (مطالبة المجتمع الدولي بتطبيق قراري الأمم المتحدة 242 و338 بشأن القضية الفلسطينية). إلا أن هذا الدعم غير كاف من جهة، ويفتقد إلى الإرادة السياسية الصادقة

لجني ثماره من جهة أخرى، ويُستدل على ذلك من عدم استجابة الأنظمة العربية لمطالب شعوبها بقطع علاقاتها العلنية والسرية مع إسرائيل، أو التلويح باستخدام سلاح النفط أو مقاطعة السلع الأميركية –بما فيها صفقات الأسلحة–للحصول على مكاسب سياسية للقضية الفلسطينية، وساعد على ذلك أيضاً ضعف بنية النظام العربي ذاته نتيجة عوامل داخلية متراكمة منذ الخمسينات، والشرخ الذي لم يندمل بعد إثر غزو العراق الكويت (1990–1991).

تغير الظروف الدولية

أثر انهيار الاتحاد السوفييتي وسيادة ما سمي بالنظام الدولي الأحادي القطبية على القضية الفلسطينية، وظهر ذلك جلياً من التحيز الأميركي لصالح إسرائيل، واستعمالها الدائم لحق النقض (الفيتو) في أي قرار يصدر من مجلس الأمن فيه إدانة لإسرائيل، هذا إضافة إلى الدعم المالي والسياسي والعسكري الذي يهدف إلى تفوق إسرائيل على نظيراتها من الدول العربية، وهو ما يعتبر من ثوابت السياسة الخارجية الأميركية.

المسيرة السلمية

ظهرت بوادر المسيرة السلمية في عقد السبعينات واكتسبت صبغة رسمية من خلال مؤتمر مدريد للسلام عام 1991، ثم توجتها اتفاقية أوسلو وما نجم عنها من تشكيل سلطة وطنية وحكم ذاتي محدود في

الضفة والقطاع، بناء على شروط للتعاون الأمني جعلت من السلطة حائط عزل بين الشعب الفلسطيني واليهود، مما أثر على المقاومة بشكل كبير.

خيار المقاومة

ورغم هذه الثقوب السوداء في ثوب المقاومة الفلسطينية الأبيض، فإن خيار المقاومة سيظل هو السنة الكونية التي تحقق منها الإنسان عبر مئات القرون لنيل حريته واستقلاله. (العاطي، 2004) (Don Peretz, 2004)

الفصل الرابع

المقاومة الفلسطينية–تخطي الصعاب وخلق واقع جديد

بدأت الساحة الفلسطينية تشهد واقعا جديدا منذ بداية الانتفاضة أضحت تبعاته تؤثر بشكل كبير في المشهد السياسي الفلسطيني والحياة الاجتماعية الفلسطينية، ولم يقتصر هذا التأثير على الساحة الفلسطينية بل تعداها إلى كافة الأطراف في المنطقة، وكان لتنامي المقاومة الفلسطينية الفضل في استمرار الانتفاضة واكتسابها هذا الزخم الذي تتمتع به. ومع الإفراط الإسرائيلي في العنف الموجه للشعب الفلسطيني بدأت المقاومة تأخذ مكانا بارزا في إدارة الصراع مع العدو الإسرائيلي.

العمليات الاستشهادية–القنبلة الذكية

بغض النظر ممن اقتبس الفلسطينيون أسلوب العمليات الاستشهادية سواء من اللبنانيين أو من نمور التاميل في سريلانكا أو من غيرهم، فإنهم طوروا هذا الأسلوب فأصبحت العمليات الاستشهادية في الأشهر الأخيرة من الانتفاضة السلاح الأبرز في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية.

ونظرا لاعتماد القوى الفلسطينية بشكل كبير وأساسي في مقاومتهم على العمليات الاستشهادية فقد اعتبر العديد من المراقبين أن هذه العمليات بدأت تؤسس لمرحلة مهمة من النضال الفلسطيني وتعتبر في الوقت ذاته تغييرا في البنية الاستراتيجية للقوى الفلسطينية لتتماشى مع ما هو متاح من أساليب المقاومة. وتكمن أهمية هذا النوع من العمليات في أنها تستطيع التحكم بوقت ومكان الانفجار إذ يصفها الدكتور

نعومي بدهتسور الذي أعد دراسة مفصلة عن العمليات الاستشهادية بأنها "القنبلة الذكية" التي تستطيع أن تختار التوقيت الملائم للانفجار الأمر الذي يجعلها سلاحا نموذجيا تلجأ إليه قوى المقاومة الفلسطينية.

"في العام الثاني للانتفاضة انضمت التنظيمات العلمانية إلى الإسلامية في تبني أسلوب العلميات الاستشهادية"

وعلى الرغم من أن التنظيمات الإسلامية الفلسطينية هي أول من بدأ أسلوب العمليات الاستشهادية في المقاومة فإن تنظيمات فلسطينية أخرى استخدمت هذا الأسلوب. ويمكن القول إن انضمام القوى العلمانية الفلسطينية يعد التطور الأبرز في المقاومة الفلسطينية في العام الثاني من عمر الانتفاضة، فحتى نهاية عام 2001 كانت حركتا الجهاد الإسلامي وحماس تقومان بالعمليات الاستشهادية (61% من منفذي العمليات الاستشهادية كانوا من أعضاء حماس والجهاد الإسلامي)، وقد انضمت إليهما في عام 2002 حركتا فتح بجناحها العسكري "كتائب شهداء الأقصى" والجبهة الشعبية للإسهام في تلك العمليات، حيت قامت "كتائب شهداء الأقصى" بعمليتين استشهاديتين وقامت الجبهة الشعبية بعمليه استشهادية واحدة. ولم يقتصر تنفيذ العمليات الاستشهادية على فئة معينة من الشباب الفلسطيني إذ أسهم في تنفيذ تلك العلميات شباب من فئات مختلفة، وتشير دراسة بدهتسور إلى أن من بين من نفذوا تلك العلميات 153 استشهاديا من الضفة الغربية و54 من غزة وستة من القدس الشرقية، واثنين من الأردن وواحد من

فلسطينيي 48. وعن المستوى التعليمي لمنفذي العمليات توضح الدراسة أن 53 من منفذيها يحملون مؤهلا علميا عاليا و58 يحملون مؤهلا جامعيا و42 لم يلتحقوا بالتعليم الجامعي، في حين تفاوتت أعمار منفذي العمليات الاستشهادية فمنهم 103 شهداء من الفئة العمرية 17–23 سنة وثلاثة من الفئة العمرية من 30–48 سنة.

كما لم تنحصر العمليات الاستشهادية على إسهام الذكور، ففي تطور جديد اتبعته القوى الفلسطينية قامت ثلاث فتيات فلسطينيات بتنفيذ عمليات عسكرية في العام الثاني للانتفاضة.

وتأتي العمليات الاستشهادية في المرتبة الأولى من بين كافة أشكال المقاومة من حيث إيقاعها بأكبر عدد من القتلى الإسرائيليين، ففي شهادة رئيس قسم العمليات بالجيش الإسرائيلي الجنرال إيلي أميتاي أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست ذكر أنه على الرغم من أن عدد العمليات الاستشهادية آخذ في التقلص مقارنة مع العمليات الفدائية الأخرى فإنها أكثر وسيلة تودي بحياة الإسرائيليين من حيث العدد، فحسب الإحصاءات الإسرائيلية فإن العمليات الاستشهادية تشكل 6% من مجمل العمليات الفدائية، ومن أصل 630 قتيلا إسرائيليا سقطوا منذ بداية الانتفاضة الفلسطينية فإن 455 (75%) قتلوا من جراء العمليات الاستشهادية، كما أن 84% من الجرحى الإسرائيليين أصيبوا في تلك العمليات.

"أكثر من 75% من القتلى الإسرائيليين منذ اندلاع انتفاضة الأقصى قتلوا من

جراء العمليات الاستشهادية"

على الرغم من الحملة الضارية التي شنها الجيش الإسرائيلي ضد المقاومة الفلسطينية بكافة قواها فإنها تمكنت من ضرب العمق الإسرائيلي بعمليات نوعية ناجحة. فالعمليات الاستشهادية كانت أكثر عددا في العام الثاني من عمر الانتفاضة رغم حالة الحصار التي ضربت على الأراضي الفلسطينية في أعقاب حملة السور الواقي مما أدى إلى إصابة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بالصدمة إذ اعتقدت بعد عملية "السور الواقي" واعتقالها عددا من القيادات الفلسطينية واغتيال عدد آخر أنها قد تمكنت من وقف العمليات الاستشهادية لأشهر طويلة قبل استئنافها من جديد، لكن ذلك لم يحدث، فقد تمكنت القوى الفلسطينية من ترميم بناها العسكرية بسرعة واستعادة عافيتها لتنفيذ المزيد من العمليات.

وزاد الأمور تعقيدا في وجه الإسرائيليين أن المقاومة وبعد كل الضربات الموجعة التي وجهت لها تمكنت من تطوير قدراتها العسكرية والانتقال إلى أهداف إسرائيلية جديدة لم يعتقد في يوم من الأيام أنها ستكون هدفا سهلا للقوى الفلسطينية.

عمليات المقاومة والنقلة النوعية

اختراق أماكن حساسة

في عملية هي الأولى من نوعها تمكنت المقاومة الفلسطينية في شهر مايو/أيار الماضي من تفجير إحدى شاحنات الغاز في أكبر مجمع للغاز في مدينة تل أبيب، لكن العملية لم تنجح إذ انفجرت الشاحنة عند مكاتب الإدارة. ورغم عدم نجاح العملية فإنها أثارت الرعب في الأوساط الأمنية الإسرائيلية بعد تمكن المقاومة من تفجير شاحنة كهذه في مكان يتمتع بحراسة مشددة. وحسب بعض التقارير فإن النجاح بتفجير مخازن الغاز كان سيتسبب في مقتل خمسة آلاف إسرائيلي على الأقل.

تطوير نوعي لسلاح المقاومة

كما شهد العام الثاني من عمر الانتفاضة الفلسطينية تمكن حركة حماس من تطوير صواريخ "القسام 2" ليصبح مداها عشرة كيلومترات وتصل إلى قلب الأراضي المحتلة عام 1948، وهي المرة الأولى التي تتمكن فيها المقاومة الفلسطينية وبسهولة من إلحاق الضرر بالمجال الحيوي الإسرائيلي وتهديد هذا المجال بهجمات موجعة ومؤثرة.

اقتحام المستوطنات

ولم يقتصر الأمر على إطلاق الصواريخ تجاه التجمعات الإسرائيلية، فقد أصبحت عمليات اقتحام المستوطنات الإسرائيلية أمرا عاديا لدى قوى المقاومة وتمكنت في عمليات الاقتحام التي نفذتها من إيقاع

عدد لا باس به من القتلى وهو ما بات يهدد المستوطنين الإسرائيليين ليس فقط على الطرق المؤدية إلى المستوطنات بل في داخلها.

تقلص الخسائر الفلسطينية

وليس أدل على التطور النوعي الذي وصلت إليه المقاومة الفلسطينية من مقارنة أعداد الشهداء الفلسطينيين مع أعداد القتلى من الجانب الإسرائيلي، ففي الأشهر الستة الأولى من عمر الانتفاضة كانت معدل القتلى الفلسطينيين 5.1 مقابل قتيل إسرائيلي واحد، في حين بلغت تلك النسبة 7.1 في الجانب الفلسطيني مقابل قتيلين إسرائيليين وهو معدل لم تصل إليه تلك النسبة حتى في الحروب العربية الإسرائيلية

الميركافا[3]–التطور الأبرز

في إطار تطور علميات المقاومة في العام الثاني للانتفاضة، تمكنت المقاومة الفلسطينية من التقدم إلى الأمام بخطى واسعة في مواجهة الجيش الإسرائيلي، فقد تمكن الفدائيون الفلسطينيون من توجيه ضربة

[3] ميركافا: دبابة إسرائيلية الصنع تتسع لطاقم مكون من 4 جنود ويبلغ طول الدبابة 7,6 متر وعرضها 3,72 متر وارتفاعها 2,6 متر وتبلغ من الوزن حوالي 63 –65 طن. تبلغ أقصى سرعة لها 60 كم في الساعة.

قوية إلى الآلة العسكرية الإسرائيلية بعد تمكنهم من تفجير عدد من دبابات الميركافا التي يصفها جيش الاحتلال بأنها "الأم التي لا تقهر".

ويعد تدمير دبابة الميركافا من أكثر عمليات المقاومة تأثيرا في الجيش الإسرائيلي بعد أن تأكد لجيش الاحتلال الإسرائيلي أن أول عملية تدمير للميركافا (وقعت في فبراير/ شباط 2002) لم يكن حدثا استثنائيا إذ تبعت عملية التدمير تلك ثلاث عمليات أخرى، الأمر الذي يؤكد حسب المراقبين أن قيادات المقاومة طورت كثيرا من أساليب قتالها خصوصا النوعي عن طريق دراسة نقاط الضعف والقوة وضرب العدو في أضعف نقاطه وأقواها في آن.

كما استفادت المقاومة الفلسطينية من أسلوب حزب الله اللبناني باعتمادها على الحرب النفسية فعمدت إلى تصوير عمليات تفجير دبابات الميركافا وقوافل الجيش الإسرائيلي وقصف المستعمرات، وهو ما أعاد إلى أذهان هيئة الأركان العسكرية الإسرائيلية أسلوب الحزب في هجماته ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي وأثرها النفسي السيئ في جنود الاحتلال والجمهور الإسرائيلي.

تأثير المقاومة في الداخل الفلسطيني

لم يقتصر تأثير المقاومة الفلسطينية على الجانب الإسرائيلي وحده إذ امتد ليشمل الجانب الفلسطيني أيضا، وكان لتنامي قوة المقاومة تأثير سلبي في السلطة الفلسطينية.

السلطة الفلسطينية

اعتقدت السلطة في بداية الانتفاضة أنها قادرة على استثمار الانتفاضة لتحقيق بعض المكاسب في مفاوضاتها مع الجانب الإسرائيلي، كما أنها رأت فيها فرصة لتحسين رصيدها في الشارع الفلسطيني بعد المشاركة الفعالة لحركة فتح العمود الفقري للسلطة في فعاليات الانتفاضة.

غير أن رياح التغيير التي أثارتها المقاومة لم تأت كما تشتهي السلطة، إذ لم تعد قادرة على ممارسة لعبة الازدواج في تعاملها مع الانتفاضة، فتارة تحاور الإسرائيليين وتنسق معهم أمنيا وتارة أخرى تمتشق البندقية لتصبح أكثر ثورية من التنظيمات الفلسطينية. فقد وجدت نفسها مطالبة من جانب الإسرائيليين والأميركيين في الوقت ذاته باستنكار العمليات الاستشهادية والمقاومة بشكل عام وهو ما تم مما أفقدها التفاف الشارع الفلسطيني الذي تمكنت من اكتسابه في بداية الانتفاضة وحصار رئيسها ياسر عرفات في رام الله.

وأدى تنامي المقاومة إلى تولد قناعة لدى الإسرائيليين والأميركيين بأن السلطة لم تعد قادرة على القيام بدورها في السيطرة على الشارع الفلسطيني، وبالتالي وجوب تغيير نهج التعامل معها، وهو ما دفع الجانبين الإسرائيلي والأميركي إلى المطالبة باستبدال ياسر عرفات وإحلال قيادة بديلة مكانه.

"دفع تنامي شعبية الانتفاضة السلطة لتعديلات وزارية في محاولة للحفاظ على شرعيتها في الشارع الفلسطيني"

ومع وقوع السلطة الفلسطينية بين ضغط المقاومة وتعنت الحكومة الإسرائيلية، أقدمت –في محاولة منها للحفاظ على مكاسبها التي حققتها منذ دخولها مناطق الحكم الذاتي في العام 1994– على إحداث تغييرات في بنيتها علها تتمكن من الخروج من عنق الزجاجة التي أدخلتها فيها المقاومة، فأحدثت تغييرا وزاريا شمل الأجهزة الأمنية، لكن تلك التغييرات لم تلق القبول من جانب الإسرائيليين وكذلك من الشعب الفلسطيني. وقد شكلت استقالة الحكومة الفلسطينية في شهر سبتمبر/ أيلول بعد المعارضة التي واجهتها في المجلس التشريعي دليلا قويا على ضعف السلطة وقيادتها وانخفاض أسهمها وسط الشارع الفلسطيني.

ولا تزال السلطة تقاوم محاولات تهميشها بعد عدم تمكنها من امتطاء أمواج الانتفاضة، ولا يعتقد أن الانتخابات القادمة في شهر يناير/ كانون الثاني ستمكن السلطة من الإبقاء على مكاسبها، فتجربة السلطة تشير إلى أنها ترضخ في النهاية لما تفرضه عليها ضرورات الواقع ومتطلبات المرحلة، وهو ما سيجعل ياسر عرفات يقدم على تعيين رئيسا للوزراء الأمر الذي سيؤدي إلى تقليص صلاحيات الرئيس بشكل واضح.

القوى الفلسطينية

امتد تأثير المقاومة ليشمل القوى الفلسطينية المحرك الأساسي للمقاومة، إذ إن العدوان الإسرائيلي وشراسته وانحياز الشعب الفلسطيني للمقاومة جعل كافة القوى الفلسطينية على مختلف توجهاتها الأيدولوجية والسياسية تدرك أن لا خيار أمامها سوى المقاومة وتفعيل العمل المقاوم.

كما أسهم انحياز الشعب الفلسطيني للمقاومة في تعزيز انحياز القوى الفلسطينية لخيار المقاومة، فآخر استطلاعات للرأي تظهر أن 48% من الشعب الفلسطيني مع المقاومة و68% مع العمليات الاستشهادية.

إضافة إلى ذلك أسهمت المقاومة في إحداث خلافات داخل بعض القوى الفلسطينية وأصبحت تهدد بإحداث انشقاق فيها، وتعد حركة فتح التي تعتبر العمود الفقري للسلطة وتنظيمها في الشارع الفلسطيني من أبرز الأدلة على ذلك. فبعد تنفيذ كتائب شهداء الأقصى عددا من العمليات الاستشهادية وشعور السلطة بالحرج من تنفيذ تنظيمها الذي يرأسه عرفات لتك العمليات صرح نبيل شعث وزير التخطيط والتعاون الدولي في السلطة وعضو اللجنة المركزية في الحركة أن كتائب شهداء الأقصى التي تقوم بهذه العمليات لا تمثل حركة فتح.

الشعب الفلسطيني

أسهم اشتداد حدة المقاومة للعدوان الإسرائيلي بالتأثير في الأوضاع الاقتصادية والمعيشية للشعب الفلسطيني الذي تعرض منذ بدء الانتفاضة قبل عامين لخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، ففي أحدث تقرير للأمم المتحدة ذكر التقرير أن قبضة إسرائيل الخانقة على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ بداية الانتفاضة تسببت في إفلاس السلطة الفلسطينية وزادت من تهاوي الفلسطينيين في هوة الفقر.

وأشار التقرير الصادر عن منظمة مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد) إلى أنه في الفترة من أكتوبر/ تشرين الأول 2000 إلى مارس/ آذار 2002 تكبد الاقتصاد الفلسطيني 40% من إنتاجه عام 1999 والذي يقدر بنحو 5.5 مليارات دولار.

ويعيش حوالي نصف الفلسطينيين دون خط الفقر (وهو دولاران للفرد يوميا) في حين قفزت معدلات البطالة من 10% من القوى العاملة في سبتمبر/ أيلول 2000 إلى حوالي 30% في يوليو/ تموز 2002.

كما تشير الإحصاءات إلى أن سلطات الاحتلال قامت بالضفة الغربية في الفترة من 29 سبتمبر/ أيلول 2000 إلى 13 أغسطس/ آب 2002 بتجريف 15 ألف دونم زراعي منها حوالي 11782 دونما أراض

زراعية تشكل ما نسبته 84% من الأراضي الزراعية، ونحو 2218 دونما من الأراضي الحرجية، كما هدمت في الفترة ذاتها 680 منزلا منها 579 منزلا هدمت بشكل كامل.

أما في قطاع غزة فقد تم في الفترة ذاتها تجريف حوالي 15152 دونما منها 2218 أراض حرجية ورملية في حين تشكل الأراضي الزراعية التي تم تجريفها ما نسبته 1.9%، كما بلغ عدد المنازل التي تدم تدميرها 700 منزل منها 585 منزلا هدمت بشكل كامل.

معوقات تطور الانتفاضة إلى مقاومة شعبية

"أدت مجموعة عوامل سياسية واقتصادية وإعلامية ونفسية إلى منع تحول الانتفاضة إلى مقاومة شعبية"

رغم انخراط الشعب الفلسطيني بكافة فئاته العمرية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي ومعاناة كافة أفراده من الإجراءات الإسرائيلية ونسب التأييد المرتفعة في أوساطه للمقاومة، فإن الشعب الفلسطيني لم يتمكن من خلق مجتمع مقاوم يتبنى المقاومة أسلوبا وحيدا لمواجهة الكيان الإسرائيلي واعتبار المقاومة المسلحة الأسلوب الأمثل للمواجهة والتخلص من الاحتلال عوضا عن اعتبارها نوعا من رد الفعل تجاه ما يتعرض له من قتل وتنكيل في الانتفاضة، ويرجع ذلك إلى عدد من العوامل:

- إبراز السلطة الفلسطينية للعمليات العسكرية على أنها من أهم أسباب العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، وأنه لولا المقاومة وعملياتها العسكرية المختلفة لتم التوصل إلى حل سياسي يوقف شلال الدم الفلسطيني.
- تصوير العمليات الاستشهادية على أنها السبب في إضعاف التعاطف الدولي مع الانتفاضة الفلسطينية الذي حققته في انطلاقتها وحقوق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة.
- التأثير الكبير لمواقف القوى الفلسطينية في توجه الشارع الفلسطيني، فعلى الرغم من توجه الفصائل الفلسطينية إلى العمل العسكري فإن تلك الفصائل لم تتمكن من توحيد موقفها تجاه المدى الزمني الذي ستستمر فيه في انتهاج أسلوب العمل المقاوم.
- صعوبة الظروف المعيشية التي يمر بها الشعب الفلسطيني والخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات، الأمر الذي يدفع الشعب الفلسطيني إلى التفكير مليا في تقديم مزيد من التنازلات التي لن تؤتي ثمارها بشكل سريع وواضح.
- عدم وجود اقتصاد فلسطيني مقاوم ينطلق من الاعتماد على الذات ولا يعتمد على الاقتصاد الإسرائيلي، فالصراع مع الكيان الإسرائيلي صراع طويل ولا يمكن التخلص من الاحتلال في فترة وجيزة، وهو ما يتطلب من الشعب الفلسطيني إحداث تغيير في بنيته الاقتصادية يخفف من حدة الأزمات الاقتصادية الخانقة التي قد يمر بها الشعب الفلسطيني مثلما هو سائد الآن.

- شعور الشعب الفلسطيني بأنه يقف وحيدا في المواجهة مع الكيان الإسرائيلي وأن المحاولات العربية للتدخل في وقف ما يتعرض له الشعب الفلسطيني إنما ترمي إلى الالتفاف على ما يحققه من مكاسب.

العمليات الاستشهادية–الجدل المستمر

منذ اعتماد العمليات الاستشهادية من قبل حركات المقاومة الإسلامية للرد على السياسة الأمنية الإسرائيلية بقتل المدنيين الفلسطينيين واغتيال قادة تلك التنظيمات بدأ الجدل إزاء هذه العمليات يتزايد خصوصا بعد التنديد الدولي بتلك العمليات وعقد مؤتمر دولي في شرم الشيخ في عام 1996 لبحث السبل القاضية بوقف تلك العمليات التي أصبحت السلاح الأبرز لقوى المقاومة الفلسطينية.

ومن أبرز ما يطرحه معارضو تلك العلميات أنها تُخسر القضية الفلسطينية التعاطف الدولي معها وتدفع جيش الاحتلال الإسرائيلي إلى توسيع عدوانه على الشعب الفلسطيني والتنكيل به، كما يرون أن هذا الشكل من العمل النضالي لا يخدم الأهداف الوطنية الفلسطينية في المرحلة الراهنة، إضافة إلى ذلك فإنهم يرون أن قضية عادلة مثل القضية الفلسطينية يجب ألا تستهدف المدنيين بصورة مباشرة وأن على الشعب الفلسطيني أن يتفوق في الصراع مع الكيان الإسرائيلي بنبل الأساليب المتبعة.

على الجانب الآخر يرى مؤيدو العمليات الاستشهادية أن ما يجري في فلسطين ليس حربا بين أشخاص هنا وأشخاص هناك وإنما حرب بين نظرية الأمن الفلسطيني الذي يريد الكيان الإسرائيلي أن يسقطه

حتى لا يبقى للفلسطيني أي أمن في أي موقع من مواقعه وبين نظرية الأمن الإسرائيلي الذي يشكل حجر الزاوية في السياسة الإسرائيلية، وعليه فإن الفلسطينيين الذين لا يملكون السلاح الكافي لمواجهة آلة الحرب الإسرائيلية لا يملكون إلا العمليات الاستشهادية لإصابة الأمن الإسرائيلي في مقتل.

ويرون أن العمليات الاستشهادية حققت حالة من توازن الفاعلية بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي بحيث امتلك الشعب الفلسطيني وللمرة الأولى القدرة على التأثير في العمق الإسرائيلي بما يوازي قدرة إسرائيل على التأثير في الشعب الفلسطيني.

كما أنه لا يوجد فرق بين الجندي الذي يذهب إلى المعركة ليقاتل وهو يعرف أنه قد يموت بيد العدو وبين من يقوم بتحويل نفسه لقنبلة ذكية، وهو ما يزيل الفرق بين الجندي الذي يقاتل بالطريقة العادية وبين الاستشهادي لأن كليهما ينطلق عبر محاولة تحقيق الهدف الذي يؤمن به.

إضافة إلى ذلك فهم يرون أن الجانب الإسرائيلي لا يتجاوب مع مبادرات القوى الفلسطينية ويتمادى في قتل المدنيين الفلسطينيين، فعلى الرغم من أن فصائل المقاومة قد أبدت استعدادها في شهر يونيو/حزيران الماضي إلى وقف العمليات الاستشهادية إذا وضع الكيان الإسرائيلي حدا لجميع الإجراءات التي اتخذها أثناء الانتفاضة ووقف قتل المدنيين الفلسطينيين، كان الرد الإسرائيلي على ذلك العرض القيام بمذبحة

غزة التي راح ضحيتها 15 فلسطينيا من بينهم قائد الجناح العسكري لحركة حماس صلاح شحادة.

(داود، 2016)

النضال الفلسطيني في طور جديد

تبرز انتفاضة القدس مؤشرات على تغير ذي مغزى في أساليب النضال الفلسطيني، وتشير أساليبها إلى أن الشعب يتكيف بوعي وذكاء ليواجه حالة الجمود التي وصل إليها المشروع الوطني الفلسطيني.

فقد اتضح أن عملية التسوية "طبخة حصى"، كما أن مسار تدويل التفاوض بطيء وغير جذاب، فيما تضاءلت حظوظ العمل العسكري المنظم بفعل الضغط الأمني المزدوج من السلطة والاحتلال، وبفعل انكشاف البنية التنظيمية للفصائل عموما ولحركة حماس خصوصا. وفي هذا التكيف مؤشر على حيوية الشعب الفلسطيني وعزمه على الخلاص من الاحتلال.

وتقاطع هذا مع تبني الرئيس محمود عباس استراتيجية "إقامة الدولة تحت الاحتلال" التي تتضمن إغضابا لإسرائيل وللولايات المتحدة، وتستلزم إسنادا شعبيا؛ أقله من حركة فتح التي كانت تتعالى فيها أصوات عديدة مطالبة بالعودة إلى مواجهة الاحتلال، وهو ما جعل السلطة تخفف من قبضتها على الحراك الجماهيري في مطلع الانتفاضة، إلا أن التغاضي عن التظاهرات والمواجهات مع جيش الاحتلال لم يستمر طويلا خوفا من خروجها عن السيطرة.

"مما يصعب مهمة الاحتلال في وأد الانتفاضة الحالية عدم وجود هياكل للعمل

المقاوم يستطيع ضربها، وهو ما يعبر عنه سياسيون وعسكريون صهاينة بقولهم

"لا يوجد عنوان للانتقام وتدفيع الثمن"؛ خلافا لما كان عليه الحال في الانتفاضتين

والحروب مع غزة ولبنان"

وبدورها كانت حركة حماس تشجع على اندلاع الانتفاضة، وأسهم المرابطون في إثارة قضية المسجد الأقصى وقدموا نماذج ملهمة للشعب الفلسطيني.

وتزامنت هذه الظروف مع ازدياد مستوى انتهاكات المستوطنين بحق الفلسطينيين في الضفة، واعتداءات المتطرفين على المسجد الأقصى ومحاولة فرض التقسيم الزماني عليه، بدعم وتغطية من حكومة الاحتلال شديدة التطرف.

ومما يصعب مهمة الاحتلال في وأد الانتفاضة عدم وجود هياكل للعمل المقاوم يستطيع ضربها، وهو ما يعبر عنه سياسيون وعسكريون صهاينة بقولهم "لا يوجد عنوان للانتقام وتدفيع الثمن"؛ خلافا لما كان عليه الحال في الانتفاضتين والحروب مع غزة ولبنان التي اعتمد فيها جيش الاحتلال استراتيجية الردع و "كي الوعي" وما سماه "عقيدة الضاحية" إشارة إلى الدمار الواسع الذي أحدثه في الضاحية الجنوبية لبيروت في عدوانه عام 2006.

وحتى عقاب عائلات منفذي العمليات لم يشكل ردعا للمقاومين؛ إذ طور المجتمع ردا عليه وهو تمويل إعادة البناء، كما أن له كلفة مرتفعة على صورة الاحتلال دوليا، فعائلات المنفذين يعدون أبرياء ولا تجوز معاقبتهم على أفعال أبنائهم.

ومما صعب على قيادة السلطة وأد التظاهرات أن موضوعي انتهاكات المستوطنين وتقسيم الأقصى يعدان موضوعي إجماع داخل الشعب الفلسطيني بكافة فصائله.

دلالات

هناك مجموعة من المؤشرات الدالة في سياق الحراك الحالي من الضروري التوقف عندها.

- تشير وقائع الانتفاضة إلى نمو حس المبادرة لدى الأفراد وتجاوز حالة انتظار الفصائل، وهذا جزء من علاج "عقدة الانتظار" التي تمنع العمل والمبادرة عند طوائف من المسلمين (انتظار الإمام الغائب، انتظار المهدي، انتظار نزول عيسى عليه السلام، انتظار زوال إسرائيل عام ٢٠٢٢).

وظهر هذا الأمر بشكل واضح عند أفراد الفصائل الذين كانوا يبادرون إلى العمليات دون الترتيب مع تنظيماتهم.

وفي ظهور المبادرة إعادة للأمور إلى نصابها الطبيعي؛ إذ الهدف من العمل الجماعي تنسيق مبادرات وجهود الأفراد، وليس أن يتوقف الأفراد عن المبادرة ويكتفوا بانتظار الأوامر من قيادتهم.

- التوجه نحو نمط الفردية في العمل الجهادي، وهو ما يدلل عليه طغيان نمط العمليات الفردية، وهذا التغير لا ينفصل عن نمط التوجه نحو الفردية في العديد من مناحي الحياة لدى الشباب العربي في عصر ثورة المعلومات ووسائل التواصل الاجتماعي و"تمكين الأفراد".

ومن الشواهد على هذا التطور تصريح رئيس الأركان الإسرائيلي "غادي آيزنكوت" الذي قال فيه: لا نرى في الأحداث الحالية تشابها مع الانتفاضتين الأولى والثانية "لأننا لا نرى قيادة تقود الأحداث، فهناك نموذج جديد من الفلسطينيين يأخذون قراراتهم على عاتقهم بشكل فردي".

- حصول تغير فكري وثقافي لدى الجمهور الفلسطيني، وتآكل استراتيجية إنتاج "الفلسطيني الجديد" التي تبنتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، من خلال جهود الجنرال كيث دايتون في بناء مؤسسات الأمن، وجهود رئيس الوزراء السابق سلام فياض في "بناء مؤسسات الدولة"، والتي تتماهى مع طرح السلام الاقتصادي المتمثل في ربط أقوات مئات آلاف الفلسطينيين بمؤسسات مرتبطة وجوديا بالاحتلال.

- أهمية دور شبكات التواصل الاجتماعي، وزيادة تأثيرها في المجال السياسي والاجتماعي، وكان من أبرز أدوارها في الانتفاضة "ترميز الشهداء" وتمجيد ما قاموا به، وهو ما كان له أثر بالغ في إلهام الكثير من "سكان العالم الافتراضي" ليحذوا حذوهم.

"تشير وقائع الانتفاضة إلى نمو حس المبادرة لدى الأفراد وتجاوز حالة انتظار الفصائل، وهذا جزء من علاج "عقدة الانتظار" التي تمنع العمل والمبادرة عند طوائف من المسلمين (انتظار الإمام الغائب، انتظار المهدي، انتظار نزول عيسى عليه السلام، انتظار زوال إسرائيل عام ٢٠٢٢)"

الدور التعبوي الهام لوسائل الإعلام وعلى رأسها فضائيات الأقصى، القدس، فلسطين اليوم؛ إذ أشارت إحصائية حديثة لجهاز الشاباك الإسرائيلي إلى أن 95% من المنفذين هم من صغار السن الذين تأثروا "بالتحريض" من التلفاز.

مؤشرات المستقبل

إن العامل الأساس في العمليات هو الرأي العام وهو ذو طبيعة ثقافية فكرية قائمة على التقييم الشعبي لمسيرة النضال الفلسطيني، وتغيره لا يمكن أن يتم في وقت قصير–ومن المتوقع أن يبذل الاحتلال جهودا كبيرة في هذا المجال–ولذلك فإن تقديرات الاحتلال الأمنية لا تتوقع توقفا قريبا للعمليات الفردية.

وهذا المتغير مرتبط بمجموعة من المدخلات التي تؤثر فيه وعلى رأسها:

1. مستوى اعتداءات الاحتلال والمستوطنين في القدس والمسجد الأقصى.
2. استمرار الجمود في مساري التسوية والمقاومة المسلحة؛ إذ أن تحرك مسار التسوية سيؤثر سلبا على العمليات الفردية، كما سيزيد من قدرة السلطة على قمع التظاهرات، أما تحرك المقاومة المسلحة فقد يستقطب قطاعا من الشباب نحوه، فيما يصعب التنبؤ بتأثيره على الحالة الجماهيرية.
3. الوضع الاقتصادي للفلسطينيين في الضفة والقدس.
4. مستوى التوافق أو الصراع بين الفصائل، إذ أن أجواء التهدئة الفلسطينية–الفلسطينية توفر بيئة مشجعة على العمل الجماهيري، والعكس بالعكس.

الفصل الخامس

النتائج

- أن هنالك علاقة بين ارتفاع نسبة التطور والرفاهية للشعوب وبين نسبة الكسل والتكاسل والخمول
- الحداثة فرضت قيودها على كل الشعوب وأصبحت آثارها واضحة وأصبح الانفلات منه قيودها أمراً شبه مستحيل
- اختلفت معنى المقاومة وساهم التطور في تحجيمه وتحويره إلى معانٍ غير التي وُجِدَ منها، وأصبح السلام خياراً بعد أن كان مرفوضاً بشكل تام
- آثار المقاومة الأوّلية وبذورها مازالت موجودة وحاضرة في الشعب الفلسطيني أينما كان، أن هنالك دائماً طرق جديدة للمقاومة والتصدي للاحتلال الصهيوني

التوصيات

- قراءة بقية سوائل[4] زيجمونت باومان، لأخذ نظرة أشمل عن مفاهيم السيولة والإحاطة أكثر بالموضوع
- الاطلاع على كتاب "حروب إسرائيل الجديدة" ل أوري بن إليعازر، حيث يقدّم تحليلاً اجتماعياً– تاريخياً، لجملة عوامل تؤدي إلى اندلاع ما يسميها المؤلف «حروب إسرائيل الجديدة» من خلال تقييم أداء ثالوث السياسة والجيش والمجتمع
- تحليل الواقع الفلسطيني بشكل أكثر عُمقاً وعلى عدة أصعدة

[4] سوائل باومان: الحياة السائلة، والحب السائل، والأخلاق السائلة، والأزمنة السائلة، والخوف السائل، والمراقبة السائلة، والشر السائل.

فهرس المراجع

فضل مصطفى مفيد قسوم. (2015). *الاقتصاد السياسي لصناعة التقنية العالية في اسرائيل*. Centre for Arab Unity Studies.

محمد عبد العاطي. (2004). *المقاومة الفلسطينية...ثورة الإنسان والحجر*. تاريخ الاسترداد 5, 2018، من موقع الجزيرة: http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a1420287-8fd5-4c2e-9a4c-b54178af1998

محمد يسري أبو هدور. (13 1, 2017). *كيف فرضت الحداثة السائلة أخلاقها على المستهلك؟* تم الاسترداد من الميادين نت: http://www.almayadeen.net/books/782990/%D9%83%D9%8A%D9%81-%D9%81%D8%B1%D8%B6%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%A6%D9%84%D8%A9-%D8%A3%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%82%D9%87%D8%A7-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3

سامح عودة. (2016). *"مجموعة السوائل".. طريقك إلى نظرية "باومان" في علم الاجتماع*. تم الاسترداد من ميدان: http://midan.aljazeera.net/intellect/sociology/2018/1/22/%D9%85%D8%AC%D9%85%D9%88%D8%B9%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%A7%D8%A6%D9%84-%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D9%83-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%88%D9%85%D8%A7%D9%86

داود سليمان داود. (2016). *المقاومة الفلسطينية.. تخطي الصعاب وخلق واقع جديد*. تم الاسترداد من الجزيرة نت: http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a23d4772-d8e8-43db-bedb-280f3c57fefd

مفاهيم عامة. (2016). تم الاسترداد من موضوع: http://mawdoo3.com/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9

زيجمونت باومان. (2000). *الحداثة السائلة*.

المقاومة الفلسطينية. (2012). تم الاسترداد من ويكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/wiki/المقاومة_الفلسطينية

الانتفاضة الأولى. (2012). تم الاسترداد من ويكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/wiki/الانتفاضة_الفلسطينية_الأولى

Neil Caplan, Muhammad Muslih, Ann M. Lesch Don Peretz. (2004). ***Palestine***. تم الاسترداد من Encyclopedia: https://www.encyclopedia.com/places/asia/israeli-political-geography/palestine

تم بحمد الله